الجزء الأول

الاستثمار الأمثل وعوائده

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الناس فلم يتركهم هملا، واستخلفهم في الأرض وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً. وأنزل كتابه العظيم نورًا وهدىً وصرّف فيه للناس من كل شيء مثلاً. والصلاة والسلام على نبينا محمد أشرف الخلق الذين اصطفاهم الله أنبياء ورسلا.

وبعد:

فلعل القارئ الكريم في طيّات هذه السطور يتوقع من متخصص في إدارة وتخطيط موارد المياه أن يتناول بالبحث والكتابة والاستقصاء مشكلة المياه في هذا القطر الحبيب من بلادنا الغالية، أو في غيره من بلاد المسلمين؛ ليضع استراتيجية مثلى في كيفية المحافظة على هذا المورد الهام واستثماره الاستثمار الأمثل، لأن الماء أساس الحياة كما قال - جَلَّ شَأْنُهُ - ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

أو لعله يظن أنني سوف أعرض عليه في هذا البحث أفضل

أنواع الاستثمارات الموجودة في السوق المحلية والعالمية لتنمية رأس ماله والمحافظة عليه.

ولكن يا أخي الكريم إذا قلَّبت النظر في هذه الحياة؛ سوف تجد المشكلات وقد تعددت والقضايا وقد تنوعت، فهل من نظرة شاملة إلى الحياة بأسرها وحل مشكلاتها؛ إننا إذا أصلحنا أحوالنا مع الله وأدينا ما يجب علينا تجاه الأوامر والمناهي فإن جميع ما نعانيه سوف يحل بإذن الله.

ألم يقل - جَلَّ من قائل - حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ (نوح: ١٠ - ١٣).

إن جميع الحلول قد تجمعت في آية واحدة كما قال - تَعَالَى -: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (الأعراف: ٩٦).

ألا وإن الاستثمار الأمثل أيها القارئ الكريم، وأفضل أنواع الاستثمارات على الإطلاق هو التجارة مع الله؛ فما من نوع من أنواع الاستثمارات في العالم قاطبة يعطي أرباحًا فوق ١٠ -

٢٠٪، ولكن الاستثمار مع الله - تَعَالَى - يعطي على أدنى تقدير ١٠٠٠ - ٧٠٠٠٠٪ والله يضاعف لمن يشاء.

واقرأ إن شئت: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (البقرة: ٢٦١).

أخي الكريم..

قد يجذبك عنوان الكتاب فتظن أنك قد وجدت ضالتك، ثم تقرأ؛ فإن لم تكن من أولئك الذين أنعم الله عليهم بالعقل الراجح وحسن الاتباع فإنك ربما تلقي بهذا الكتاب جانبًا فهل أنت فاعل؟ .. لا، بل أظنك أحرص من هذا.

وختامًا أيها القارئ الكريم فإن هذا ما وفقني الله له فنشرته راجيًا به نفع إخوتي المسلمين، مبتغيًا به وجه الله، فإن أحسنت فمن الله وإن اسأت فمن نفسي والشيطان.

والله أسأل أن يهدينا ويوفقنا إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة. والحمد لله رب العالمين.

دكتور

عبد الله بهجت

إدارة وتخطيط موارد المياه

مجتمعنا الحاضر

التائهون في غمرات الحياة.

اللاهون في ملذاتها.

الذين تشعبت بهم الهموم.

وتنوعت لديهم الأهداف.

والذين اختلطت عليهم السبل، فضاعوا في بيداء الحياة، وغرقوا في بحرها المتلاطم؛ فهذا قد صبَّ جل همّه في تجارته وضاع بين ردهات المصارف وعقود الصفقات، وهذا جعل كل همّه في وظيفته وانهمك في أعباء الوظيفة والمُرتّب والزيادات، وذاك قد بذل مُعظم وقته من أجل علمه الذي قد لا ينفع؛ فضاع بين جهد الأبحاث وتحصيل الشهادات. أكثر هؤلاء .. في سكرة .. في غفلة .. في غياب. إن لم يكن عملهم هذا استثمار للآخرة.

إنني لا أتحدث عن أولئك الذين صرفوا جل همومهم وأضاعوا كل أوقاتهم في الملاعب ... في الغناء .. في الأسواق ... في المعاكسات ... في الفضائيات ... في لعب (البلوت وغيره) نسأل الله العافية، فهؤلاء لا شك في خسارتهم إن لم يتداركهم الله

برحمته، بل أعني كثيرًا ممن يفترض فيهم الالتزام، ممن طغى عليهم هذا الانهماك الشديد في العمل والتجارة فذهب بهم السيل وجرفهم في دوامة الحياة. لقد ألهاهم التكاثر في المال والشهادات والمناصب.

هؤلاء يخادعون أنفسهم ويبررون التهاءهم في الدنيا بمبررات طالما ترددت على الألسن .. يقولون: إن العمل والاكتساب عبادة .. طلب العلم فريضة .. اطلب العلم من المهد إلى اللحد .. فتجده يفني عمره في طلب علم قد لا ينفع أو مال زائد عن حاجته أو منصب لا يريد به وجه الله.

لا شك أن العمل وطلب العلم قد يتحول إلى عبادة .. ولكن متى؟ وهل يُتعبد الله باكتناز الأموال؟ أم يتعبد بالبحث والاستقصاء في عادات الشعوب أو أصل الحضارات البائدة، والقبائل المنقرضة وأصل بعض اللهجات في إحدى اللغات، أو في الأشعار والمسرحيات لدى شكسبير أو غيره، ونيل شهادات عليا في ذلك أو البحث وراء البحث في مواضيع لن نسأل عنها يوم القيامة ولن يضر الجهل بها شيئًا؟

أم هل يتعبد الله في الجري وراء المباحات على حساب الواجبات؟ إذن لابد أن هناك حدًا .. حدًا للاكتفاء، وحدًا لسد الحاجة.

يقول ابن القيم - رحمه الله - في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ (التكاثر: ١): «أي شغلكم على وجه لا تعذرون فيه، وأعرض (الله سبحانه) عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر؛ فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها انتهى»[١].

ومن المعلوم أن الأصل في خلق البشر أولاً وأخيرًا هو أن يعبدوا الله وحده، ولست أشك في أن أحدًا من المسلمين يعارض ما أقول ألبتّة، ولكن تسمع ما يقول الناس ثم ترى ما يفعلون فلا تجد هناك توافقًا ولا تجد انسجامًا إلا ما رحم ربي.

إن هذا البحث يطرح مناقشة أحسبها موضوعيّة، بشيء من التأنّي، يناقش فيها وضعنا الديني في عصر تكالبت فيه علينا المادة، وتداعت فيه علينا الأمم، وكثر اللّبس فيه بين العمل للدنيا والعمل للآخرة. وهو دعوة لمحاسبة النفس، ومراجعة الحلول والنتائج، وابدأ فيه بنفسي ثم أدعو القراء الكرام، لعل الله أن يجلوَ عن قلوبنا ما ران عليها، وعن بصائرنا ما شابها، فنبصر معًا طريق الحق والرشاد.

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ٥٤ - ٥٥.

مغزى الخمسين صلاة:

لقد فرض سبحانه على أمة محمد ﷺ أول ما فرض من الصلاة لدى معراجه - عليه الصلاة والسلام - خمسين صلاة، فهل تساءلنا ما الحكمة من ذكر الحديث بأن الله قد فرض خمسين صلاة ثم أعفانا منها؟ في اعتقادي - والله أعلم - أنه سبحانه فرض ذلك وهو يعلم أحوالنا وأنه لا طاقة لنا بذلك؛ فلو أننا نصلي في اليوم خمسين صلاة، واليوم أربع وعشرون ساعة فستكون صلاة كل نصف ساعة من الزمن، ولو حذفنا من الأربع والعشرين ساعة، ست ساعات للنوم فستكون صلاة كل ثلث ساعة تقريبًا، وما دام الرجل يصلي في المسجد فإنه سيجد نفسه لا يستطيع مفارقته لتقارب أوقات الصلاة، وستجد المرأة نفسها على مصلاها لا تفارقه إلا لتعود إليه، فأين متطلبات الحياة وأين مسؤولياتها والتزاماتها؟

إذن ما مغزى فرضها ثم ذكر إعفائنا منها وقصرها على خمس؟ إنها لم تذكر هكذا جزافًا، وتعالى الله سبحانه عن ذلك، فهو سبحانه الحكيم في أقواله وأفعاله، إن الحكمة الظاهرة - والله أعلم- أن يُبيِّن لعباده أنه لم يخلقهم في هذه الدنيا إلا لعبادته؛ فافترض شيئًا منها وحبب في الاستزادة قدر المستطاع، فالحديث إذن يدل على الآتي:

١- التأكيد على الهدف الذي خلقنا من أجله وهو العبادة.

٢- بيان فضل الصلاة المفروضة على غيرها، واستحباب الإكثار منها نافلة، ومن جميع العبادات بحسب الاستطاعة، هذا فضلاً عن بيان رحمته سبحانه بعباده ومضاعفة أجر الصلوات الخمس إلى خمسين صلاة.

فهذا يبين أن الأصل في خلق الخلق هو العبادة، وأعني بالعبادة: العبادة المحضة الخالصة لله، لكن بما أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد خلقنا بشرًا ولم يخلقنا ملائكة، فإننا إذن لن نستطيع العبادة أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، فللبشر طاقات وقدرات محدودة ولهم متطلبات تقتضيها طبيعتهم البشرية لابد لهم منها، فمن ذلك:

١- متطلب بدني: من مأكل ومشرب وراحة للبدن «فإن لجسدك عليك حقًا»(١).

٢- متطلب اجتماعي: القيام على أمور الأهل والأولاد ورعايتهم وصلة الأرحام وما إلى ذلك: «إن لزوجك عليك حقًا» «إن لولدك عليك حقًا»(٢).

(١، ٢) جزء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فإنه كان يصوم الدهر ويقوم الليل أبدًا، فلما أعلم النبي ﷺ، بذلك، قال له: «لا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك (أي ضيفك) عليك حقًا، وإن بحسبك ان تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله» رواه البخاري في الصوم رقم (١٩٧٥) وزاد مسلم «وإن لولدك عليك حقًا» في صحيحه في الصيام رقم (١١٥٩)

٣- متطلب مالي: ومنه السعي في طلب الرزق لاستيفاء الاحتياجات الأساسية من طعام وشراب وملبس ومسكن.

٤- متطلب ديني: وهو الفروض والواجبات المطلوبة من المسلم شرعًا، والتي نستطيع أن نسميها (الحد الأدنى للعبادة) إن صحّ التعبير.

كما أن هناك حدًا أعلى (لا يعتبر من المتطلبات) وهو مبنيٌ على الوسع والطاقة بحسب الضوابط الشرعية؛ فلا يستطيع العبد مهما بلغ من العبادة أن يتعبّد الله بأكثر مما حدد له في الشرع، فلا يستطيع أن يصوم الدهر مثلاً، أو أن يصلي في أوقات النهي إلا بشروط، أو في حال الجنابة أو الحيض والنفاس للمرأة، ولا يسعه شرعًا أن يوصي بأكثر من ثلث ماله.

إن أداء المتطلبات الثلاث الأولى على وجهها الصحيح بدون إفراط ولا تفريط؛ سوف يتحول إلى عبادة، كما هو الحال في المتطلب الديني، ما دامت النية فيها ابتغاء وجه الله باستيفاء الحاجة البشرية التي لابد منها وصرف النفس بها عن محارم الله للتفرغ للعبادة بنشاط، بما في ذلك شهوة الفم والفرج؛ فقد قال ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة» (١)، وقال «ولست بنافق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا آجرك الله بها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك» (٢).

(١) رواه مسلم، انظر شرح النووي حديث رقم (١٢٢).
(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٧٢١).

ولابد بعد ذلك من تخصيص الوقت المتبقي بعد هذه المتطلبات للتفرغ للعبادة الحقة كالصلاة النافلة وقراءة القرآن والصيام والذكر وما إلى ذلك من الطاعات التي خلقنا الله - سبحانه وتعالى - لكي تقيمها؛ قال - تَعَالَى -: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون (٥٦)﴾ (الذاريات: ٥٦)، وقال - تَعَالَى -: ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي للَّه ربِّ العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المُسلمين (١٦٣)﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣).

وعلى هذا تكون حياتنا كلها لله عبادة على الوجه التالي:

١- إخلاص النية لله في جميع الأعمال الدينية والدنيوية.

٢- تحقيق المتطلبات بدون إسراف.

٣- تخصيص الوقت المتبقي عن المتطلبات في الطاعات المختلفة والأعمال الصالحة وعدم الاسترسال في طلب المباحات الزائدة عن الحاجة.

وليس معنى ذلك التبتل والتعبد في صومعة بأعلى جبل ونبذ شهوات الدنيا كما قد يتوهم بعضهم، وليس معنى ذلك إجهاد النفس والانقطاع للعبادة الخالصة؛ فإن البشر يتفاوتون في أدائهم لهذه المتطلبات، كما أنهم يتفاوتون في حاجتهم إلى الوقت الكافي لأدائها؛ فمنهم العامل الذي يكدح ليل نهار لكي يوفر لنفسه وأهله

لقمة العيش التي تكفيه بالكاد ليوم أو عدّة أيام، ومثل هذا لا يُلام في ذهاب جل وقته في العمل طالما أنه يؤدي ما افترض الله عليه من عبادة، لأنه إنما يوفر لقمة العيش التي بدونها لا تستقيم له الحياة.

فانظر مثل هذا كم يتبقى له من وقت خارج هذه المتطلبات، ربما مقدار ركعتين خفيفتين يركعهما من الليل فيكون بذلك قد استغل وقته كله في العبادة.

ومنهم الموظف ذو العيال يعمل في الصباح على مكتبه ثم يعود فيتناول طعامه ويؤدي قسطًا من الراحة ثم يلاعب أهله وأولاده (وهذا كما أسلفنا من المتطلبات) ويؤدي ما فُرض عليه من صلوات وإذا بمعظم وقته قد مضى ولم يتبق له إلا النزر اليسير فعليه إذن استغلاله في تعمير آخرته ورفع درجته.

ومن الناس من تأتيه الأموال بدون بذل جهد أو وقت فيكون ممن أنعم الله عليهم بالمال والفراغ وربما الصحة أيضًا، وهذه من أجلّ النعم التي اختصه الله بها وهو مُخير في إمضائها بحسب ذكائه وكياسته.

فهو إما أن يطلب المزيد لدنياه باستثمار أمواله في المشاريع تلو المشاريع إلى ما لا نهاية حتى تعود أمواله مجرد أرقام في البنوك.

وإما أن يكتفي بقدر معين ويقنع بما تحصّل عليه - خاصة

إذا كان ذلك كاف لمعيشته وأهله وأولاده برخاء - فينفق مما آتاه الله ويبذل ما تبقى من وقته في رضاه.

فالأول مغبون وهو عبدٌ لماله وكان ماله عليه نقمة.

والثاني رابح وهو عبدٌ مقرب من الله وكان ماله عليه نعمة.

وهل يتفاوت العباد في درجات الجنة إلا بأعمالهم، فهاتان مزيتان ميّز الله بهما بعض عباده، فخصهم بالمال الوفير والوقت المتسع لينظر ما هم صانعون فيهما، فإن هم استغلوا أموالهم وأوقاتهم في الشهوات كانوا ممن قال الله فيهم: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ (الأحقاف: ٢٠)؛ فهؤلاء قدموا العاجل على الآجل، والفاني على الباقي فما أشد خسارتهم، لأنهم لم ينتفعوا بما آتاهم الله من نعم وما خصهم به من مزايا، فمثلهم كمثل الطفل يُعطى المال فيمزق بعضه وينفق بعضه في شراء الحلوى.

وخلاصة القول إن المال والوقت من خير النعم، إن استغلّهما العبد في نفع آخرته، وإلا فسيكونان عليه وبالاً وسببًا في نسيانه ربه وآخرته.

والمسلم مطالبٌ بأن يحرص على وقته أشد الحرص، فهو مسؤول عنه، فعليه أن يحاول جاهدًا اختيار العمل الذي يوفر عليه

المال والوقت والجهد قدر ما يستطيع لئلا يذهب وقته سدى، ويستنفد طاقته في عمل كان قادرًا على إيجاد أفضل منه.

وإنني أدعوك أخي القارئ لتُلقي نظرة سريعة على واقعنا اليوم؛ حيث طغى المطلب البدني والمالي والاجتماعي على حياتنا، بل وحتى على المطلب الديني، حتى أصبحت هذه المتطلبات عوائق تعوقنا عن العبادة الأساسية التي من أجلها خُلقنا.

لقد ألهانا التكاثر في المال والشهادات والأولاد والمناصب، وقد حذرنا الله من ذلك فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾** ﴾ (المنافقون: ٩)، وإنها لم تلهنا فحسب بل لقد أصبح بعضنا عبيدًا لها، عبيدًا للدنانير والدراهم، عبيدًا للمناصب، عبيدًا للشهادات عبيدًا للشهوات من ملابس ومساكن ومراكب وغيرها.

وصدق القائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حُرًا

وما تمادى المرء في ذلك وانشغل به إلا لمحبته له محبةً تفوق حبَه لخالقه أو لموافقته هواه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا كان العبد مخلصًا له اجتباه ربه فيحيي قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضادّ ذلك

من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له ويتشبّث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرّ بعطفه أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًا، وتارة يجتذبه الشرف والرياسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من ينثي عليه ...»[١].

وقد يعدد الأشياء المحبوبة من دون الله من حيث لا يعلم فتجده بالإضافة لما سبق يهيم بالكرة مثلاً، حتى إذا جاء وقت الصلاة لم يصلّ بل يُقلّب التلفاز بحثًا عن قناة أخرى يواصل معها الحدث، فيكون بذلك قدّمها وفضلها على عبادة الله، فمن فضّل شيئًا على عبادة الله فهو عبدٌ لهذا الشيء.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما الشرك في العبادة: فهو أسهل من هذا الشرك، وأخف أمرًا، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله في عمله وسعيه

(١) ابن تيمية، طب القلوب، ص ٢٠٨.

نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، وهذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيمارواه ابن حبان في صحيحه: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»(١).

«كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن واجب أو اشتغل بفعل محرّم كان عاصيًا، وإلا كان منقوصًا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين»(٢).

فالاشتغال بفضول المباحات وإن لم يُله عن واجب فإنه ينقص درجة العبد في الجنة، وأينّا لا يريد الدرجات العلا؟ أم أننا نلتهي عنها بطلب الدرجات العلا من الدنيا ثم نتمنى على الله الأماني فنطلب أن نكون من المقربين في أعلى الجنان؟

وهل تعلم يا أخي الكريم الفرق بين درجات المقربين وما دونها من درجات أصحاب اليمين؟

هذه مقارنة سريعة وموجزة كي لا تكون تلك الدرجة هيّنة عليك فتزهد فيها وتقول كما قال الضعفاء من طلاب الدنيا: (أريد أن أضع قدمي في الجنة وحسبي). أخي الكريم لا تكن همتك دونية فترضى بالقليل من الآخرة ولا ترضى إلا بالكثير من الدنيا؛ فقد قال

(١) ابن القيم، الجواب الكافي، ص ١٥٤ - ١٥٥.
(٢) ابن تيمية، طب القلوب، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

ﷺ: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه قال: وفوقه عرش الرحمن – ومنه تفجَّر أنهار الجنة»(١).

ويبدأ نعيم المقربين بعد الموت مباشرة، وهم الذين عناهم الله بقوله: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ** ﴾ (سورة النحل: ٣٢)، فهم طاهرون مطهّرون من الذنوب منذ وفاتهم، وكذلك أصحاب اليمين وإن كانوا أقل درجة من المقربين فيما يُحصِّلون من النعيم، أما الظالمون لأنفسهم فهم مُرْجَؤُون للمشيئة الإلهية؛ فإما أن يعفو الله عنهم ويغفر لهم وإما أن يعذبهم على تقصيرهم؛ فهم إذن على خطر من التعرض للعذاب في البرزخ وإن لم يف عذاب البرزخ بتمحيصهم من الذنوب فقد يتعرضون للعذاب في عرصات يوم القيامة قبل دخولهم الجنة حتى يخلَّصون من الذنوب، فإذا خلُصوا وطابوا دخلوا في جملة الذين يقال لهم: ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** (٧٣) ﴾ (الزمر: ٧٣).

ويتفاوت المقربون وأصحاب اليمين في النعيم بحسب أعمالهم:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

المقربون	أصحاب اليمين
١- قال تعالى في سورة الرحمن ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦)﴾ لكل عبد منهم جنتان من ذهب كما في الصحيح.	﴿ومن دونهما جنتان (٦٢)﴾ لكل عبد منهم جنتان أدنى من جنان المقربين وهي من فضة كما في الصحيح.
٢- ﴿ذواتا أفنان (٤٨)﴾ أي بها فنون وأنواع شتى من الملاذ وقيل أغصان كثيرة تجمع فنونًا وأنواعًا شتى من الثمار كما أنهما واسعتا الفناء فهما أكثر اتساعًا ممن دونهما.	﴿مدهامتان (٦٤)﴾ كثيفتا الشجر ممتلئتان بالخضرة قد أسودتا من شدة الري.
٣- ﴿فيهما عينان تجريان (٥٠)﴾ تجمع بين النضح والجريان .. تفوح بألوان من الطيب على دور أهل الجنة كنضح المطر والنوافير.	﴿فيهما عينان نضاختان (٦٦)﴾ أي كل منهما ممتلئة وفياضة تنضح بالطيب ولكن الجارية مع الفوران أفضل.
٤- ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان (٥٢)﴾ أنواع لا تحصى من الفاكهة ومن كل فاكهة نوعان قيل نوع معروف ونوع غريب ونوع رطب وآخر يابس.	﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨)﴾ تدل على أن فيهما أنواع محدودة من الفاكهة وليست بالتنوع الذي في سابقتها.
٥- ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان (٥٤)﴾ الفرش التي يجلسون ويتكئون عليها بطائنها من	﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان (٧٦)﴾ قيل إنهم متكئين على الوسائد وأنها خضراء جميلة والعبقري الطنافس

المقربـــون	أصحاب اليمين
الديبـــاج المذهب (هذه البطانة الداخلية) فكيف بالظاهر من الفرش وثمارها قريبة دانية يتناولونها كيف شاءوا وعلى أي صفة كانوا، فهي تتدلى لهم حتى يتناولوها قيامًا وقعودًا ومضطجعين.	والبسط الموشاة.
٦- ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) ﴾ نساء جميلات أكثر حسنًا وجمالاً ممن دونهن في الجنان وقد قصرن أنظارهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم باختيارهن وشبههن في الحسن والصفاء والبياض باليواقيت والمرجان.	﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) ﴾ خيرات الصفات والأخلاق حسان الوجوه مجبولات على قصر أبصارهن على أزواجهن والتي قصرت نفسها باختيارها أفضل. فللمقربين قاصرات الطرف، ولأصحاب اليمين المقصورات في الخيام.
٧- يشربون من عين التسنيم.	يمزج هذا الشراب لهم بشراب آخر.
٨- يشربون من عين الكافور.	يمزج هذا الشراب لهم بشراب آخر.
هذا وغير ذلك من الأشربة المتنوعة كالخمر واللبن والزنجبيل والسلسبيل.	ولهم أشربة كثيرة أيضًا ولكن أشربة المقربين أطعم وألذ مذاقًا.

المقربـون	أصحاب اليمين
ويقال عن عين الكافور التي يختص بها هؤلاء أنهم يتصرفون فيها حيث شاءوا يقودونها ويفجرونها في أي مكان أرادوا في دورهم ومجالسهم ومحالهم؛ قال تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ (الإنسان: ٦) وخلاصة القول أنهم أكثر نعيمًا وأوسع جنانًا وأجمل نساءً وأكثر عددًا منهن وأطيب طعامًا وشرابًا.	
٩- وفوق ذلك فهم يرون ربهم عَزَّ وَجَلَّ في اليوم مرتين.	يرون ربهم كل جمعة.
١٠- قال تعالى في شأنهم: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ أخلصوا العمل فأخلص لهم الجزاء.	مزجوا العمل فمُزج لهم الجزاء.

(١) من ابن القيم، حادي الأرواح، ومن تفسير ابن كثير سور: الرحمن، والإنسان، والمطففين.

نظرات ونظريات دنيوية .. تصلح لوظائف آخروية:

الأسلوب المسمى (Optimization) المثالية وإمكانية تطبيقه على الحياة الدنيوية؛ وهو طريقة متبعة في جميع مجالات الحياة في الدول المتقدمة ترمي إلى تحقيق المثالية في جميع الأمور؛ وذلك عن طريق استغلال الموارد المتوفرة أفضل استغلال لإنتاج أفضل عائد بأقل التكاليف ولأطول مدّة ممكنة. كإنشاء سد مثلاً أو إدارة شركة بأقل التكاليف الممكنة وبتحقيق أعلى مردود من الفائدة على المدى الطويل.

وفي الحقيقة فإن السعي للمثالية ليس صنعة الغرب وحده؛ فإن الإسلام يدعو الإنسان لكي يكون ساعيًا للأمثل (optimizer) في جميع أموره وقراراته وأفعاله، وقد بين الله سبحانه ذلك في كتابه العزيز في أكثر من آية فقال - جَلَّ وَعَلاَ -: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (الملك: ٢)، وقال: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ (الإسراء: ٩)، كما قال - جَلَّ جَلاَلُهُ -: ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ (الزمر: ١٨). وقال: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا** ﴾ (الأحقاف: ١٦)، ونستطيع أن نطبق هذا الأسلوب أو هذه المثالية على حياتنا الدنيا بأسرها، وعلى كيفية قضاء أعمارنا فيها؛ فهي أكبر مشكلة وهي الأجدر بالبحث والحل، بل إنها أساس كل مشكلة تواجهنا في الحياة.

فلنحدد المشكلة[١] ولنبيّن الموارد ولنوجد لها الحلول الممكنة، ثم لنختر معًا الحل الأحسن والأمثل. وقبل أن نبدأ علينا أن نتعلم أولاً كيف نتخذ القرار السليم في الوقت المناسب، بناءً على العلم الصحيح فكثيرًا ما يقترن العلم بالحكمة في القرآن: وذلك لأن العلم بدون حكمة لا يؤتي ثماره، والحكمة بدون علم ليست بحكمة، فلا فائدة فيهما إن لم يقترنا، وكلما ازداد الإنسان علمًا كان قراره أحكم، وحلوله أصوب في غالب الأمر. ولذلك فإن الإنسان كلما تقدم به العمر كان أقرب إلى الصواب في قرارته؛ وذلك لأن التجربة وكثرة المراس تكسبان المرء نوعًا من الحكمة، فنجد الطفل مثلاً يمسك بالمكواة الساخنة أو الآلة الحادة أو يسقط من مرتفع فيؤذي نفسه لأنه ليس لديه سابق معرفة، ولم يُحط علمًا بمخاطر هذه الأمور، ومن ثمّ لم يفكر، وكيف يفكر وذاكرته خالية من المعلومات؟

ومن الممكن اكتساب الحكمة؛ وذلك بالتفكير السليم على الأسس السليمة في اتخاذ القرارات التي سنتعرض لها بشيء من التفصيل فيما بعد، فعلى المرء أولاً أن يَعرف المشكلة التي يريد أن

(١) قد يختلط الفهم على القارئ في لفظ (مشكلة) فنُفهم على أنها ورطة أو معضلة، وليس هذا قصدت، إنما أقصد باللفظة تشبيهها بالمسألة الرياضية (Problem) وذلك تقريبا للأذهان لبسطها وتحليلها ومن ثمّ حلّها الحل الأمثل.

يتخذ القرار بشأنها والإحاطة بها بجمع المعلومات عنها، بعد ذلك عليه أن يحدد الأهداف التي بناءً عليها سيحل المشكلة، ثم عليه أن يضع جميع الحلول الممكنة، ومن ثم يقوِّم تلك الحلول وينظر فيها على المدى القريب والبعيد ويحدد الفوائد المحسوسة وغير المحسوسة، وكذلك التكلفة المحسوسة وغير المحسوسة كالضغوط النفسية والسعادة والشقاوة المترتبة على الخسائر والأرباح، بعد ذلك عليه أن يختار الحل الذي يحقق المردود الأعلى والتكلفة الأقل بناءً على الأهداف التي وضعت. ومشكلتنا الآن هي الحياة (حياتنا) كيف نقضيها وكيف نستثمرها وكيف نحقق السعادة بها قبل أن نحقق السعادة فيها.

نعم هذه مشكلات جديرة بالنظر فيها واتخاذ القرار السليم بشأنها وقد أمدّنا الخالق - جل وعلا - بموارد للمساعدة في حلها، فقال رسوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه»[١]، وقال ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك،

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠ / ٦٠ ، ٦١ ، واللفظ له. والبزار في مسنده رقم (٢٤٣٧). وهو صحيح بشواهده. وذكر نحوه الألباني في صحيح الجامع برقم ٧٣٠٠ .

وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» (١).

وقال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ» (٢).

باستطاعتنا الآن أن نلخص هذه الموارد في الآتي:

١- العمر متمثلاً في الوقت، وأخصّه وقت الشباب والفراغ.

٢- المال.

٣- العلم.

٤- الصحة.

وقبل وضع الحلول وانتقاء الحل الأمثل، لابد من معرفة الحياة المعرفة الحقيقية ووضع الأهداف السليمة التي على ضوئها نستطيع أن نتخذ القرار المناسب، وقد أوضح لنا القرآن الكريم حقيقة الحياة بما لا يترك مجالاً للشك في حقيقتها؛ فقد قال - سبحانه وتَعَالَى -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ (الرحمن: ٢٦ - ٢٧)، وقال: ﴿وما هذه

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٦ عن ابن عباس وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وذكر جوده الألباني في صحيح الجامع برقم ١٠٧٧.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس ورقمه (٦٢٦٥).

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ (العنكبوت: ٦٤)، وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ (يونس: ٢٤)، وغير ذلك من الآيات، الأمر الذي يبيّن أن هذه الحياة إلى زوال وإلى فناء ولكن متى؟ إن الحياة التي نعنيها هي حياة الفرد؛ فكل من مات انتهت حياته وقامت قيامته، وكم يستطيع الفرد أن يُعمِّر على هذه الأرض؟ إن من أطول الناس عمرًا في وقتنا الحالي من يصل إلى السنة العشرين بعد المئة وهم قليل، فلنفترض أن حياة الفرد تتراوح في حدود الثمانين سنة فهذه هي المدّة الافتراضية للحياة التي نعنيها.

ولابد من الأخذ في الحسبان أن حياة الإنسان لا تقتصر على هذه الدنيا الزائلة، وإنما هي حياة أبدية؛ فالروح لا تموت ولا تفنى بفناء الجسد، وما الجسد بالنسبة للروح إلا كالدابة يركبها الإنسان ليقضي عليها حوائجه، وأن هذه الحياة الدنيا إنما هي مرحلة من المراحل التي سوف ننتعداها إلى غيرها وهي: البرزخ (حياة

الإنسان في القبر)، ويوم القيامة (وهو يوم العرض والحساب والذي قدره سبحانه في القرآن بخمسين ألف سنة)، ثم دار الإقامة الدائمة إما في الجنة وإما في النار، وأن الإنسان مجازىً على أعماله، فالروح هي المعوّل عليها وليس الجسد؛ فالإنسان إنما يسمع ويبصر ويفكّر ويعقل بالروح وليس بالجسد، إذن على ضوء هذه المعلومات لابد من التفكير واتخاذ القرار السليم بشأن هذه الحياة الأبدية في استغلال الموارد السابقة الاستغلال الأمثل لتحصيل أعلى مردود من السعادة والرفاهية لهذه الروح الغالية ومن ثم الوصول بها إلى الجنة التي هي غاية المنى بعد رضوان الله عَزَّ وَجَلَّ.

نجد أن الله - تبارك وتعالى - قد بيّن لنا ما اتخذ عباده السالفون من حلول، فبيّن لنا جميع الحلول الممكنة ولم يبق لنا إلا حرية اختيار الحل الذي نراه أنه الأمثل فذكر أن الناس قد افترقوا في ذلك إلى أربع فرق؛ وذلك من خلال قسمين رئيسين:

أحدهما: قسم الكافرين الذين أشركوا بالله وأنكروا البعث؛ وهؤلاء فريق واحد من حيث المآل والمصير في الآخرة؛ وهو الخلود في النار وهم الموصوفون بأنهم أصحاب المشأمة؛ كما قال

تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ (البلد: ١٩، ٢٠).

والثاني: قسم الذين آمنوا بالله تعالى وباليوم الآخر؛ وقد وُصفوا في سورة البلد بأنهم أصحاب الميمنة في مقابل الكافرين أصحاب المشأمة. وقد قسم هؤلاء المؤمنون السعداء في بعض السور إلى سابقين مقربين وأبرار أصحاب يمين؛ دون ذكر للعصاة من المؤمنين وذلك كما في سور: الواقعة، والإنسان، والمطففين.

بينما قسّموا في آية أخرى إلى ثلاثة فرق وذلك بإضافة فريق عصاة المؤمنين إلى الفريقين السالفين: السابقين وأصحاب اليمين؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (فاطر: ٣٢).

فيتحصل لدينا من مجموع ما ذكر أربع فرق:

١- فريق الكافرين الذين أشركوا بالله وأنكروا البعث.

٢- فريق الظالمين لأنفسهم من المؤمنين[١]؛ وهم المفرّطون في

(١) الظلم للنفس درجات أقصاه الكفر والشرك بالله، كما أن المقتصدين يتفاوتون في درجاتهم وكذلك السابقين: لأن الناس يتفاوتون في درجة الصلاح والفساد. ولكن مرتبة (الظالمين لأنفسهم) في الآية تعني عصاة المسلمين وليس الكفار؛ لأن الله تعالى قال في أول الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

الفروض والواجبات والمصرّون على الذنوب وأصحاب الكبائر نسأل الله العافية.

٣- فريق المقتصدين؛ وهم الذين اقتصروا على أداء الفرائض واجتناب المحرمات.

٤- فريق السابقين بالخيرات؛ وهم الذين أضافوا على فعل المقتصدين التقرب بالمستحبات وتجنب المكروهات.

فما أشد خسارة أولئك الذين رسبوا في الامتحان فاستغلوا جميع الموارد المتاحة لهم على أن الحياة على هذه الأرض هي كل شيء أغرتهم زخارفها فتساقطوا عليها سقوط الغراب على الجيَف، واختاروا بناءً على ذلك أفضل الحلول لتحقيق أعلى مردود من الرفاهية والنعيم فيها فكانوا ظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر بكفرهم وإنكارهم للبعث، وخسروا خسارة فادحة؛ لقد اختاروا متعة أجسادهم الفانية في المرحلة الأولى من الحياة الأبدية للروح فبئس ما اختاروا لحاضرهم ومستقبلهم.

وأما الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين فقد فرّطوا تفريطًا كبيرًا، فلا استطاعوا كبح جماح الشهوات ولا احترزوا من مغبة الولوج في الحُرُمات فتاهوا وتشعبت بهم الطرق وأصبحوا على خطر عظيم إن لم يتداركهم الله بالمغفرة، وهؤلاء يمثلهم - مع الأسف - كثير من المسلمين في عصرنا هذا.

وأما الفريق الثالث فقد كان همهم أن يتفادوا التعرض للنار، ولو بالاقتصار على ما يسقط المساءلة ويجنب العقوبة بالنار ولو كانت أدنى عقوبة؛ وهذا لعمر الله فلاح عظيم لمن أفلح في تحقيقه، ولهذا قال النبي ﷺ: «أفلح إن صدق»[١]. وفلاحه هنا فلاحان: فالأول لنجاته من النار، والثاني لقيامه بما يسبب له دخول الجنة دون سابقة عذاب، ولا يحاسب إلا حساباً يسيرًا - وهو عرض أعماله عليه - ثم ينقلب إلى أهله مسرورًا.

وأما الفريق الرابع الذي وضع أمامه هدفًا واحدًا وسعى لتحقيقه وهو الفوز بالدرجات العلى في الجنة، فسعى لاستغلال تلك الموارد في خدمة هذا الهدف أفضل استغلال، واعتبر أن حياته إنما هي مكونة من تلك المراحل الأربع (الدنيا - البرزخ - القيامة - الجنة أو النار) فعمل لذلك ففاز، وهو فوق هذا لم يحرم نفسه من خيرات الدنيا بل قد تأتيه الدنيا وهي راغمة ولكنها لا تكون في قلبه، بل في يده، ولا تأثير لهواه على آخرته، فهذا لعمر الله الفائز وقد قال العلامة ابن القيم في ذلك:

«إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج ١، ص ١٤.

لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلِي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته؛ قال - تَعَالَى -: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** (٣٦) ﴾ (الزخرف: ٣٦)(١). وقال ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدِّر له»(٢).

وقال ﷺ: «من جعل الهموم همًا واحدًا، همّ المعاد، كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك»(٣).

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ط ٢، ص ١١٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ج ٤ / ٦٤٢، ورقمه ٢٤٦٥، سنن ابن ماجة ج ٢ / ١٣٧٥ ورقمه ٤١٠٥ وصححه الألباني.

(٣) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، ج ٢ / ١٣٧٥ ورقمه ٤١٠٦، وحسنه الألباني.

فالمسلم إذًا مطالب باختيار الحل الأمثل لآخرته وليس لدنياه دون آخرته؛ فاختيار الأمثل والأحسن وابتغاء الكمال الدنيوي إنما هو منقصة في الآخرة، مخذلة يوم العرض والحساب.

وبناء على ما ذكرنا في السابق فإن الحل الأمثل والأفضل بلا شك هو اختيار مرتبة السابق بالخيرات الموصلة إلى أعلى درجات الجنة بسلام من غير حساب ولا نقاش، والضامنة لرضوان الله (سبحانه) والقرب منه عَزَّ وَجَلَّ.

انظر الرسم للتوضيح:

شجرة اتخاذ القرار

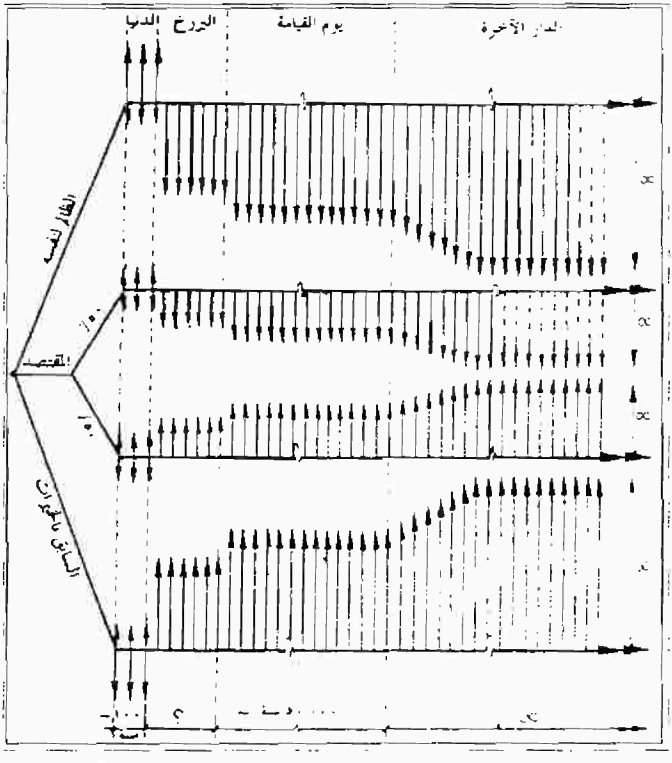

هذا الجدول مبني على التقديرات التقريبية فقط والعلم عند الله

السهم إلى أعلى – منفعة س.د – علامة قطع لضيق المساحة.

السهم إلى أسفل – تكلفة α علامة مالا نهاية وتعني رقم كبير يصعب عده،وهي أيضاً قد تعني الخلود كما في حالة السابق)

السهم المتقطع، احتمالية التكلفة

تعريف بالشكل:

هذا الشكل هو في الحقيقة دراسة تحليلية لحل (مشكلة)[١] الحياة، أتقدم بها إلى المستثمرين من أولي الألباب. والشكل ص (٤٠) يسمّى في علم تحليل النظم (System Analysis) شجرة اتخاذ القرار (decision tree)، ويستخدمها المحللون في اتخاذ القرارات الاقتصادية الصائبة كما في استثمارات رجال الأعمال وذلك عند تعدد البدائل والخيارات فيقترحون عليهم بموجبها البديل الأفضل لاختياره واعتماده، وتتلخص في رسم خطوط بعدد البدائل المتاحة، ثم دراسة كل بديل على حده عن طريق تقييم الفوائد والتكلفة السنوية على مدى العمر الافتراضي للبديل، ورصد جميع الاحتمالات السلبية والإيجابية فيه بحيث يستبعد بعد ذلك كل بديل مكّلف أو مجهول العاقبة.

ونحن هنا نحلل هذه البدائل الموصلة للهدف وهو (الجنة) ونرجح البديل الذي يحقق لنا أعلى قيمة من مجموع حساب نسبة الفائدة على التكلفة وهي ما تسمى بـ (Benefet - Cost Ratio) وتختصر إلى (B/C Ratio)، وكلما قومت تلك الفوائد والتكاليف

---

(١) ذكرنا آنفًا أننا نعني المشكلة هنا هي المسألة الحسابية التي تتطلب الحل إن صح التعبير.

تقويمًا صحيحًا، وكانت المعلومات المستقاة لتقويمها صحيحة، كان القرار المتخذ تبعًا لذلك صائبًا وحكيمًا[١]، ثم بعد ذلك نقوم الفوائد والتكاليف التي هي هنا تمثل (النعيم والعذاب) في المراحل الأربع لعمر الإنسان الأبدي.

شرح الشكل:

يوضح الشكل افتراق الناس من هذه الأمة في سعيهم في الحياة الدنيا إلى ثلاث فرق وهي السابق ذكرها بعد استبعاد فريق الكافر لخسارته البائرة، وانحراف مساره عن الهدف، فمن هؤلاء من شحذ فكره وأعمل عقله ومنهم من عمل فيها بما يمليه عليه هواه، ومنهم من أطاع عقله تارة وهواه تارة، وكلٌ قد اختار بمحض إرادته ما يراه مناسبًا له، فمنهم الظالم لنفسه، والمقتصد ومنهم السابق بالخيرات.

ويظهر بأعلى الشكل المراحل الأربع التي يمر بها الإنسان خلال عمره اللانهائي. أول تلك المراحل هي الحياة الدنيا، وقد بيّنا أن عمر الفرد فيها يتراوح بين السبعين والمئة، وتلي هذه المرحلة مرحلة البرزخ؛ وهي مرحلة طويلة يتراوح عمر الإنسان فيها من فرد لآخر ولا يعلم عدد سنيّها إلا الله، وتبدأ فور انفصال الروح

---

(١) ومن أصوب قولاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

عن الجسد عند الموت. يلي ذلك مرحلة الوقوف في عرصات يوم القيامة للفصل بين العباد، ومقدار ذلك اليوم الرهيب كما هو ثابت في القرآن والسنة خمسين ألف سنة. ثم يليه مرحلة الدار الآخرة؛ مرحلة الخلود الأبدي إما في الجنة وإما في السعير عياذًا بالله تعالى.

نرى أن الظالم لنفسه قد أخطأ التقدير إذ نظر بنظرته اللحظيّة القاصرة إلى حياته الدنيا في الغالب فكبرت في عينيه وآثرها على ما سواها حتى صُغرت قيمة الآخرة لديه فلم يولها الأهميّة المطلوبة فسعى لكي ينال في دنياه أوفر المنافع ولكي يستمتع بملذات الدنيا أيّما استمتاع، وهو مع هذا السعي، قد لا ينال مبتغاه في الدنيا، بل قد يمضيها معيشة ضنكًا. وهي في الشكل (الأسهم المرتفعة إلى أعلى في مرحلة الدنيا) وكان نتيجة تقصيره العمل للمراحل الثلاث التالية أن دفع التكاليف الباهظة الثمن العالية الخسارة إلى ما لا يحصى عذابًا وأمدًا فلا يعلم أمده إلا الله قبل دخوله الجنة في النهاية، لذلك وضعنا بجانبه الرمز (α) وتظهر هذه التكاليف في الشكل على هيئة أسهم متجهة إلى أسفل في المراحل الثلاث.

ولكي نرصد نسبة الفوائد التي حصلها عليها هذا الفرد إلى التكلفة التي جناها من جرّاء اختياره لهذا الطريق علينا أن نحسب

مجموع الفوائد على مدى المراحل الاربع
مجموع التكلفة على مدى المراحل الأربع

ثم نرصد قيمة الأرباح بطرح مجموع التكلفة من مجموع الفوائد.

وبالنظر إلى مسار الظالم لنفسه (بالشكل) نجد أنه لم يكد يجمع من الفوائد إلا في مرحلة واحدة على الأكثر[١] التي هي أقصر مراحل عمره المديد، ونال فيها أعلى مردود من الفائدة لمدة قد لا تتعدى المئة عام على أعلى التقديرات والتي تعتبر لحظة من لحظات عمره اللانهائي في حين أنه قد دفع من التكاليف الكثير على مدى المراحل الثلاث الباقية والتي يعجز الإنسان فيها عن حساب الزمن فيمكث في العذاب أزمانًا وأحقابًا لا يعلم منتهاها إلا العظيم الجبار.

وفي ذلك يقول ﷺ: «... حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم، ويعرفونهم بآثار السجود وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء

(١) نعني بالفوائد هنا هي الاستمتاع بالشهوات في الدنيا وهذا لا ينافي أنه باقٍ على الإيمان ولذلك فإنه ينجو من الخلود في النار.

الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ..»[١].

وهؤلاء على درجات في نسبة مكوثهم في النار فمنهم من لا يصلي البتة ولكنه يخرج بإقراره بأنه لا إله إلا الله، ومنهم من يصلي مرة ويمتنع عن الصلاة مرات تفريطًا وتهاونًا، ومنهم من يصلي ولا يصوم ومنهم الذي يصلي ويصوم ويؤدي الأركان الخمس ولكنه يأتي الكبائر ويصرّ عليها نسأل الله العافية.

وبعد أيها القارئ الكريم أليس هذا مغبون وظالم لنفسه حقًا؟! فلو حسبنا ما تحصّل عليه من منافع في دنياه إلى تلك التكلفة الباهظة الثمن الغير معلومة الأمد فإنها تكون كالتالي:

١- نسبة الفوائد على التكلفة: (B/C Ratio)

$$\frac{\text{فائدة}}{\text{تكلفة}} = \frac{\text{مجموع فوائد ١٠٠ سنة (في الدنيا)}}{\text{مجموع تكلفة على مدى مراحل العمر الباقية}} = \frac{\text{منافع ١٠٠ سنة}}{\alpha\ \text{(عدد غير محدود)}} = \text{صفر}$$

لأن أي رقم إذا ما قسم على (α)[٢] = صفر

٢- قيمة الأرباح = الفائدة التكلفة

= مجموع فوائد ١٠٠ سنة - تكلفة المراحل الباقية التي لا تحصى سنواتها (α)

= مجموع فوائد ١٠٠ سنة - α = - α

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، باب فضل السجود، ج ٢، ص ٣ .
(٢) هذه العلامة هنا تعني عدد كبير يتعذّر حسابه ولا تعني الخلود بالضرورة.

فأيّ رقم إذا ما طُرح من ما لا نهاية (α) فكأنه غير موجود.

والدليل العملي على ذلك حديث رسول الله ﷺ إذ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة[١]، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط فيقول: لا، والله! يارب! ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا. والله! يارب! ما مرّ بي بؤس قط. ولارأيت شدّة قط»[٢].

يدل الحديث على أن المرء إذا توفرّت له جميع سبل الرفاهية في الدنيا من مال وفير وسعادة نفسية وملذات لا حدود لها مع طول العمر والصحة وربما الملك والمنصب والجاه ثم يغمس في النار غمسة فإن جميع تلك الفوائد التي انتفع بها لا تساوي شيئًا مقارنة بها، فهي تساوي (صفر) أمام غمسة واحدة فما بالك بمن يمكث سنينًا وأحقابًا ولو كان آماله إلى الجنة بعد ذلك[٣].

أما مسار المقتصد فقبل أن نتخذ القرار بسلوك مساره فإن لنا عنده وقفات ..

---

(١) أي يغمس غمسة.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢١٦٢

(٣) هناك استثنائات لا يستند إليها عند اتخاذ القرار، فقد يبتلي المذنب ببلاء يمحصه في الدنيا أو يتكلم بكلمة من رضوان الله فترفعه أو يعفو الله عنه.

الوقفة الأولى:

بنظرة شمولية على المقتصر عن الحد الأدنى للعبادة ثم النظر في الوعود والتهديدات من القرآن والسنة، نجد الوعد للمقتصر المحسن في أداء عبادته بالفلاح، ونجد الوعيد لمن لم يحسن أو لم يؤدها على الوجه المطلوب. قال ﷺ: «إن الرجل ليصلي ستين سنة، وما تقبل له صلاة، ولعله يتم الركوع ولا يتم السجود ويتم السجود ولا يتم الركوع».

وفي السنن عن عمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليصلي ولعل أن لا يكون له من صلاته إلا عشرها، وتسعها أو ثمنها أو سبعها حتى انتهى إلى آخر العدد»(١).

قال حسان ابن عطية: «إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض وذلك أن أحدهما مقبل على الله عَزَّ وَجَلَّ والآخر ساه غافل»(٢).

وأني لمن عمّر دنياه، وألقى بنفسه في غمارها الموّار، ولهث خلف سعار المادّة، وسباق التكاثر، واستغرق جوارحه وعقله في

---

(١) النسائي، السنن الكبرى، ج ١، ص ٢٠١ ورقمه ٦١٣، وذكر نحوه الألباني في صحيح الجامع وحسنه.

(٢) ابن قيم الجوزية، الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص ٣٦

عقد الصفقات، وإبرام العقود، وبناء العقارات أن يخشع في صلاته؟ بل إننا لا نبرّئ ساحة المُقلّ في هذا العصر باعتراف كثير من الناس في عصر رفع فيه الخشوع إلا ممن رحم الله فكيف بالمكثر؟ وكيف لمن ضيّع وقته في اللهث وراء الأصدقاء والخلان خلف تلك الشاشات السوداء، وفي تقليب (المحطات) من فضائية إلى أخرى بحثًا عن المتعة أن يؤدي صلاته في وقتها بلْهَ أن يخشع فيها، أو أن يحسن صيامه.

قال ﷺ: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلُحت أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخَسِرَ فإن انتقص من فريضته شيئًا قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوّع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»(١).

فمن الحكمة عند اتخاذ القرار أن نتساءل .. ماذا لو لم نحسن الأداء؟ وهل نضمن لأنفسنا أداء ما فرض علينا من عبادة على وجهها المطلوب بشروطها وواجباتها وأركانها.

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد وذكره الألباني في صحيح الترمذي برقم ٤١٣ .

الوقفة الثانية:

مما لا شك فيه أن إيمان العبد يصقله العمل الصالح ويقويه فإن قل العمل قل الإيمان، وقلت المعرفة بأسماء الله وصفاته تبعًا لذلك فيكثر منه اقتراف الصغائر (أكثر من السابق بالخيرات) ويكثر اتكاله على المغفرة والرحمة من لدن ربه، وينسى أو يتناسى بطشه وعذابه وذلك لقلة عبادته وقلة معرفته بربه.

وفي الحديث «إياكم ومحقرات الذنوب إنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ضرب لهن مثلاً: «كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل يجيئ بالعود، والرجل يجيئ بالعويد، حتى جمعوا من ذلك سوادًا ثم أجّجوا نارًا فأنضجت ما قذف فيها»(١).

فإن مات العبد على صغائر لم يتب منها أهلكته إن لم يغفر الله له، مثله في ذلك كمثل صاحبي القبرين الذين مرَّ بهما رسول الله ﷺ فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير . . .»(٢).

فيُحْسُنُ بنا هنا أن نتساءل مرة أخرى:

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى، ورقمه ٢١٢٢٢، وأورد نحوه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٦٨٧ مع اختلاف طفيف في بعض الألفاظ .

(٢) البخاري، صحيح البخاري، باب ما جاء في غسل البول ورقمه ٢١٨ .

ماذا لو كثرت سيئاتنا؟ وماذا لو لم تف حسناتنا بتغطية النقص بها وجبرها . . آه لو رجحت سيئاتنا على حسناتنا.

إنها الطامّة ومصيبة المصائب؛ إننا إذن سنعرض أنفسنا للوقوف والمساءلة والعذاب.

فما من عاقل يخاف لهب النار أن تصيب جوانبه ثم يقتصر على الحد الأدنى للعبادة لأنه لا يدري على وجه الحقيقة أمحسن هو أم مسيئ؟ حتى ولو كان مؤديًا لها على الإخلاص والمتابعة وهذا دأب أسلافنا من الصحابة الكرام والتابعين العظام إذ كانوا يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ألا تقبل منهم. إذ ليس كل من ظن أنه أهل لدرجة نالها إلا بالجد والمثابرة. فالأولى للعبد أن يبتعد عن حافة الهاوية حتى لايضطرب توازنه فيسقط فيها، «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»(١) فإن التلميذ المُجدّ الذي يسعى لنيل درجة (الامتياز) في دراسته قد لا ينالها، ولكنه إن نزل عنها بعد جدّه واجتهاده فقد يحوز على تقدير (الجيد جدًا) على أقل تقدير وهذا يعني نجاته من الرسوب، أما من يسعى للنجاح وحده ولو بتقدير (مقبول) فإنه عندئذ معرض للرسوب وحينئذ لا يلومن إلا نفسه.

(١) جزء من حديث صحيح مسلم، باب أخذ الحلال وترك الشبهات. ج ٣، ص ١٢١٩.

وعلى هذا فإن من الدقة في رسم شجرة اتخاذ القرار رصد جميع الاحتمالات وأخذها في الحسبان فلهذا المسار احتمالان كونه على أدنى العبادة فمن أحسن فيه كان مقتصدًا ناجيًا، ومن لم يحسن كان مع الظالمين، وقد كثر العابرون من خلال هذا المسار في هذا الزمان ادعاءً وظنًا. فحسبوا أنهم مقتصدون فائزون (والله أعلم) ولكن كثير منهم مفَرطون على شفا جرف هار فليحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم.

ولكي نعرف قيمة هذا المسار حسابيًا مع الأخذ في الحسبان احتمالية الخسارة فهي كالتالي:

١- نسبة الفوائد على التكلفة (B/C Ratio) =

$$\frac{\text{فائدة}}{\text{تكلفة}} = \frac{\text{فوائد ١٠٠ سنة}}{\text{تكلفة ١٠٠ سنة}}$$

$$= \frac{\text{فوائد ١٠٠ سنة (في الدنيا) - فوائد (في الآخرة)}}{\text{تكلفة ١٠٠ سنة (في الدنيا)}} + ٠٫٥٪ \frac{\text{فوائد ١٠٠ سنة (في الدنيا) + صفر}}{\text{تكلفة ١٠٠ سنة (في الدنيا) + } \alpha \text{ (مدة غير معلومة)}}$$

= ؟ (تعذر إيجاد قيمة لعدم معرفة مدة التكلفة عند التقصير في الحد الأدنى للعبادة).

٢- قيمة الأرباح = الفائدة - التكلفة

= ٥٠٪ (فوائد ١٠٠ سنة + فوائد (في الآخرة) - (تكلفة ١٠٠ سنة + صفر)

+ ٥٠٪ (فوائد ١٠٠ سنة - تكلفة ١٠٠ سنة - تكلفة (في الآخرة)

= ؟ (تعذر إيجاد قيمة لعدم معرفة مدة العذاب (التكلفة) إن وجد.

أيها القارئ الكريم .. هذا تقييم لمسار وليس تصنيفًا لأصحابه. فعند تقييمه لابد من تفريعه إلى مسارين كما أسلفنا، مسار لمن ظن أنه على الاقتصاد وهو دون ذلك. ومسار لمن أحسن في أدائه ففاز وأفلح. وعلامة الاستفهام (؟) تدل على أن من سلكه لا يدري من أي الفريقين هو.

فالخطورة في سلوك هذا المسار تكمن في اقتصار صاحبه على الحد الأدنى من العبادة أو قريب منه مما يعرّضه للنقص فيها أو عجز حسناته عن محو ذنوبه كلها وافتقاره إلى رصيد من النوافل والأعمال الصالحة التي قد يحتاج إليها للنجاة من الهلاك.

أما السابق وما أدراك ما السابق، الفطن الكيّس؛ الذي نظر إلى مقدار حياته الدنيا في آخرته فهانت عليه وعلم أن آخرته هي الباقية، فعمل لها وكان سباقه إليها مشروطًا بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ والسير على نهج رسوله صلوات الله وسلامه عليه، فهو (في الشكل) وإن كان قد دفع من التكلفة في دنياه أعلى من الظالم

والمقتصد إلا أن ما قدمه لا يُذكر مقارنة بالفوائد الجمّة التي تحصل عليها على مدى عمره الأبدي الذي لا نهاية له.

فإن أردنا أن نضع قيمة حسابية لهذا المسار فإنها تكون كالتالي:

١- نسبة الفوائد على التكلفة (B/C Ratio):

$$\frac{\text{فائدة}}{\text{تكلفة}} = \frac{\text{مجموع فوائد } (\alpha) \text{ في المراحل الثلاث}}{\text{مجموع تكلفة ١٠٠ سنة في الدنيا}} = \frac{(\alpha)}{\text{تكلفة ١٠٠ سنة}} = (\alpha)$$

٢- قيمة الأرباح = الفائدة - التكلفة

= مجموع فوائد (α) - تكلفة ١٠٠ سنة = + (α)

فأي رقم إذا ما أضيف أو طرح من (α) فإنه يساوي (α)

أخي الكريم .. ما أشبه امتحانات الدنيا بامتحان الآخرة مع فارق التشبيه فمن فرّط في امتحان نصف السنة ونهايتها وتدنّت نسبته عن حد معين فهو راسب لا محالة. ومن أراد الاقتصار على الامتحانين السالفين وترك ما عداهما من أمور اختياريّة كحضور المحاضرات وحل الواجبات وعمل المشاريع والأبحاث ودخول الامتحانات الشهرية فله ذلك ولكن لابد في هذه الحالة من

حصوله على نسبة ١٠٠٪ للنجاح. أما إن أدى ما عليه أو بعضه من أمور اختيارية فإنها تجبر النقص الذي قد يحصل له في أداء الامتحانين وترفع درجته، إذ من الصعب جدًا حصول الطالب على ١٠٠٪ في الامتحانين وما من عاقل يكتفي بهما لأنه لا يضمن لنفسه لنجاح. أما من حاول جهده الإحسان في أدائهما بالإضافة إلى ما عليه من متطلبات اختيارية فإنه في هذه الحالة يكون ناجحًا بل ومتفوقًا في الغالب.

فيا عجبًا .. ما بال أكثرنا يسعون للاجتهاد في الحضور وحل الواجبات والأبحاث ليؤمّن لنفسه النجاح في الدنيا وأما في الامتحان الأكبر؛ امتحان الآخرة فإنه يقنع بالحد الأدنى ويخاطر به، إن اختبارات الدنيا يمكن تداركها في سنوات لاحقة، أفلا تكون الآخرة التي لا مجال لتعديل نتيجتها بعد ظهورها أولى بالجدّ والاجتهاد؟

قال تعالى: ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)** ﴾ (الزمر: ٥٦ - ٥٨).

نتائج التحليل لحل (مشكلة)[١] الحياة الحل الأمثل:

		نسبة الفائدة / التكلفة B /C Ratio	الارباح = فائدة - تكلفة P = B - C
١	مسار الظالم لنفسه	صفر[٢]	- (α)[٣]
٢	مسار المقتصد	ب[٤]	ب[٤]
٣	مسار السابق	(α)[٥]	+ (α)[٦]

(١) أي مسألة حسابية تستحق الحل (إن صح التعبير).
(٢) أي أن الفائدة وهي الاستمتاع بملذات الدنيا لا يساوي شيئًا لما يتعرض له من عذاب (تكلفة)
(٣) لا يوجد أرباح فهي خسارة (لا نهائية) لمدة لا يعلمها إلا الله.
(٤) تعذر إيجاد قيمة لعدم معرفة ما إذا كان هناك عذاب أم لا.
(٥) نعيم (فوائد) إلى ما لا نهاية (خلود).
(٦) أرباح لا تنتهي في القيمة والمدة.

البداية .. تحرير العقل:

(إنما تكتمل العقول بترك الفضول)[١] (إذا اكتملت العقول، كمل اغتنام الزمن، وتم إدراك شرفه، فأنت مهما جهدت لا ترى صاحب الفضول في مطعمه أو مشربه، أو ملبسه، أو منامه، أو زيارته، أو حديثه، أو غير ذلك من شؤونه، حريصًا على زمنه فضلاً عن أن يكون منافسًا له.

من عرف قيمة الزمن لا يكون إلا صاحب قصد واعتدال في أموره كلها؛ فهو يدري أن التوسع في المطاعم سبب النوم، وأن الشبع يُعمي القلب ويهزل البدن ويضعفه)[٢] فالقضية أننا نريد تحرير عقولنا - وبالتالي قلوبنا - من أسر الفضول؛ هذا هو الهدف، فكيف الوسيلة؟.

واقعنا المعاصر ومفهوم الهدف والوسيلة:

الهدف: هو النقطة أو المكان الذي يسعى المتسابق للوصول إليه.

الوسيلة: هي أداء عمل معين للوصول إلى تلك النقطة أو لتحقيق ذلك الهدف. إن الذي حدث في هذا العصر هو انقلابٌ في الموازين واختلاطٌ في المفاهيم فأصبح الهدف وسيلة والوسيلة هدفًا، تعددت الأهداف فتعددت الوسائل فَفُقدت القدرة على التمييز، خذ على سبيل المثال:

(١، ٢) الدكتور خلدون الأحدب، سوانح وتأملات في قيمة الزمن، ص ٦٧ .

■ **الأطعمة** . . لماذا نأكل حتى التخمة؟. لماذا يشكو الكثير منا البطنة؟ وما أمراض العصر التي ظهرت في القولون والأمعاء والمعدة إلا منها؛ ألم يقل الرسول ﷺ: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه»[١]؟.

لقد تنوع الطعام وأصبح الهدف هو التلذذ والشبع والامتلاء.

■ **المال** . . هل يستطيع شخص الآن ممن أنعم الله عليهم بالمال أن يقول يكفيني مليون أو عدة ملايين فقط، ولن أسعى لاستثمار المزيد؟! إنه بلا شك سوف يسعى لطلب المليون بعد المليون، مع أن هذه الزيادة لن تزيد من اتساع جوفه للمزيد من الطعام ولن تجلب له رخاء فوق رخائه، وإنما هو تكديس للأموال واستمتاع بجمعها والمفاخرة بكثرة العقارات والشركات والمؤسسات، لا التبلغ والاكتفاء. وصدق الشاعر حيث قال:

أراك يزيدك الإثراء حرصًا ... على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يومًا ... إليها قلت حسبي قد رضيت

■ **السيارة** . . نجد كثيرًا من الناس يسعون لامتلاك آخر (موديل) ويحرص الواحد منهم على تغيير سيارته كل سنة .. لقد

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند وأخرجه أيضًا الترمذي وابن ماجه والحاكم وابن حبان وقال الترمذي حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي وهو فيه بلفظ (أكلات) بدلاً من (لقيمات) وهو فيه برقم ٢٣٨٠ .

أصبح الهدف امتلاك السيارة الفارهة، ولم تعد لدى البعض وسيلة للتنقل فقط، سُئل أحدهم عن أمنيته فقال: كل ما أتمنى هو أن أمتلك السيارة (الشبح)؛ يعني المرسيدس الفارهة، انظر إلى الأهداف الدنيوية والهمم الدنيّة!.

■ المسكن . . هناك من يدخر الأموال ويقترض من البنوك الربوية لبناء المسكن الفاخر الذي يفوق ما يملك من مال، وما ذلك إلا لأنه أصبح يعده هدفًا لا وسيلة، وإلا لما سعى في بذل ما يملك وما لا يملك من ديون وأقساط وقروض في سبيل تحقيق رفاهيةة تفوق الحاجة.

■ الوظيفة . . هي الأخرى لم تعد وسيلة للحفاظ على المستوى المعيشي، أصبحت هدفًا في حدّ ذاتها كمكانة مرموقة في المجتمع وأصبح الارتقاء في مراتبها هدفًا يستميت الفرد ويداهن من أجل الوصول إليها.

■ العلم . . لم يسلم العلم من ذلك أيضًا؛ فقليل من يتعلم ليزداد من الله قربًا ومعرفة، أو يتعلم للحاجة الماسة لهذا العلم سواء للفرد أو للمجتمع، ولكن كثيرين هم من اتخذوا الشهادة هدفا ليقال عالم، مهندس، دكتور، بروفيسور لديه شهادة معتمدة من هنا . ولديه بحثًا منشورًا هناك.

كل ذلك وغيره كثير، إن دل على شيء فإنما يدل على أمر واحد فقط هو الدنيا؛ هموم كثيرة ومتشعبة هي هموم الدنيا وقد قال ﷺ: «من جعل الهموم همًا واحدًا، هم المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديته هلك»(١).

ويقول ابن القيم رحمه الله:

(فرغ خاطرك للهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا، وإذا سدّ عليك بحكمته طريقًا من طرقه فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه، فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له، وليس ذلك لغير المؤمن؛ فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلي النفيس، والعبد بجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذُخر(٢) له، بل هو مولعٌ بحب العاجل وإن كان دنيًا، وبقلّة الرغبة في الآجل وإن كان عليًا)(٣).

---

(١) سبق تخريجه، ص ٣٧

(٢) ما خبئ له.

(٣) ابن قيم الجوزية. الفوائد، ص ٧٥ .

وأين نحن من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)** ﴾ (الذاريات: ٥٦) لم يقل ليركضوا في طلب أرزاقهم منذ اشتداد سواعدهم حتى نهاية آجالهم.

الترف الحضاري في بلادنا الإسلامية إلى أين؟

إننا أمة الإسلام نعلم تمام العلم ونوقن تمام اليقين أن هناك جنة ونارًا: ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)** ﴾ (الذاريات: ٢٣)، ونؤمن أن الجنة يورثها الله عباده المتقين، وأن الدرجات العلا فيها لا تُحرز إلا بالعمل الصالح، أما غير المسلمين فإنهم يسعون إلى تحقيق أعلى درجات الرفاهية في الدنيا، وليس لديهم بعد حقيقي أو نظرة فاحصة عن حقيقة الجنة والنار وأوصافهما وأهلهما، ولذلك فالجنة بعيدة المنال بالنسبة لهم، فهم لا يتطلعون إليها، هذا إن آمنوا بها فضلاً عن شكهم وارتيابهم فيها، فلا جرم إذن أن يعملوا عملاً دؤوبًا لنيل كل ما من شأنه تحسين معيشتهم في الدنيا، بل إنهم يعملون فيها عمل من يظن أنه خالدٌ مخلدٌ فيها؛ قال تعالى حكاية عن نبيه هود عليه السلام وهو ينكر على قومه أفعالهم قائلاً: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)** ﴾ (الشعراء: ١٢٨، ١٢٩) قال المفسرون: أتبنون بناءً ومعلمًا مشهورًا عبثًا لا للاحتياج

إليه بل لمجرد اللعب واللهو، وإظهار القوة؛ فأنكره عليهم لأن فيه تضييعًا للزمان، وإتعابًا للأبدان في غير فائدة، واشتغالاً بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، وتتخذون أبنية وأبراجًا وقصورًا لكي تقيموا فيها ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون[١]؟ فما لنا نحن وهؤلاء؟. إنها جنتهم كما قال الصادق المصدوق ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٢] وما ذلك إلا لأن للمؤمن فيها حدودًا لا ينبغي له أن يتعدّاها كما أن للسجن حدود، أما الكافر فلا حدود له فيها فليس له رادعٌ يردعه عن أعماله، فلا مانع من الإسراف أو الربا أو الكسب الحرام أو غيره إلا ما وضع له من قوانين وضعية لا تؤثر كثيرًا على حياته في عصر (الحرية) غير المشروطة وغير المقيدة .. نعم أقول: ما لنا ولهم؟ لماذا نتبعهم في كل صغيرة وكبيرة؟ حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلناه وراءهم كما أخبر الرسول : «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٣].

لقد بهرنا التقدم العلمي والماديّ الذي أحرزته الشعوب

---

(١) انظر تفسير سورة الشعراء. الآية ١٢٨ - ١٢٩ في تفسير ابن كثير.
(٢) رواه مسلم، في صحيحه برقم (٢٩٥٦).
(٣) رواه مسلم، من حديث أبي سعيد الخدري، في صحيحه برقم (٦٧٣٢).

الكافرة، فسعينا إلى تطبيقه بكل ما فيه حتى الملابس وقصات الشعر، لقد نسينا أن لهم تطلعات وأهدافًا، وأنّ لنا تطلعات وأهدافًا لا يمكن أن تتطابق، فتطلعاتهم تطلعاتٌ مادية بحتة، وأهدافهم أهدافٌ دنيوية بحتة، أما تطلعاتنا وأهدافنا فيجب أن تسمو عن هذه الحياة الدنيا، ويجب أن تتعدى هذه الأرض المحدودة؛ تتعدى الأفلاك والأجرام إلى ما فوق السماء السابعة، إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض، وهي والله حق، فلم لا نسعى إليها؟

إننا لسنا مطالبين بجلب كل سبل الرفاهية إلى بلادنا ولسنا مطالبين بمضاهاتهم فيما وصلوا إليه من تقدم وتقنية استهلاكية اللهم إلا ما نحن بحاجة ماسة إليه، ولله درُّ من قال: «اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها» فانظر ما بقاؤك في الدنيا وما بقاؤك في الآخرة، ويقول الرسول ﷺ: «ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»(١).

وقد بيَّن الله - سبحانه - في كتابه الجليل أنه لولا أن يعتقد كثير من الجهلة من الناس أن ما يغدقه الله على بعضهم من رفاهية مادية وأموال دليل على محبته لهم، لخص من يكفر به سبحانه

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ج ٢، ص ١٣٧٦ ورقمه ٤١٠٨ وصححه الألباني.

بتلك الرفاهية والترف المادي، ولكنه جعل ذلك للجميع رحمة بضعاف الإيمان حتى لا يفتنهم بريق المادة فيكفرون مثلهم لأجلها، فالأحرى بمن خصهم الله بنعيم الآخرة أن يقتصدوا في نعيم الدنيا؛ فقال تعالى: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (٣٣) ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون (٣٤) وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين (٣٥)﴾ (الزخرف: ٣٣ - ٣٥).

إن ما يشكو منه جسد الأمة الإسلامية هو بحق ظاهرة مَرَضيّة خطيرة؛ تلك هي الاشتغال بالوسائل والأسباب، وما ذلك إلا لاتباع الشهوات وعبادة الهوى، وهي أمورٌ يخشى أن تكون نذير هلاك، ولهذا قال النبي ﷺ: «ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(١).

التنافس بين الوهم والحقيقة:

إن الناظر إلى عالمنا اليوم يرى أناسًا أوشكوا أن يأخذ كل منهم بتلابيب الآخر يجعله خلفه قائلاً نفسي نفسي .. السبق لي لا لغيري، تنافس وسباق محموم في كل مجال، وفي كل طبقة من طبقات المجتمع .. تنافس من أجل المادة أيهم يجمع أكبر قدر منها،

(١) جزء من حديث رواه الطبراني في الأوسط عن أنس وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٠٣٩ .

وفي سبيل ذلك يحدث الظلم والكذب والتدليس والاختلاس والواسطة والحقد والبغضاء، فتغتصب الأموال وتنتهك الحقوق كل ذلك من أجل متاع زائل.

لم يحرِّم الله سبحانه السعي في طلب الرزق، بل حض عليه ولكنه دعا إليه بلفظ (وابتغوا) (وامشوا) فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ١٠)، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك: ١٥)، ولم يقل واركضوا أو تسابقوا، وحينما أشار إلى أمر الآخرة والسعي في طلب الجنة دعا إليها بلفظ (وسارعوا) (وسابقوا) فقال (سبحانه): ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١).

وقد أرشدنا الله سبحانه إلى المجال الأمثل للتنافس السامي والهدف الذي لا ينشأ عنه ظلم ولا إثم ولا عداوة ولا بغضاء إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ (المطففين: ٢٢ - ٢٦)، فهذا والله هو مجال التنافس الحق، ومن فضل الله أن يسّر هذا التنافس على طالبه في هذا العصر، فلقد كان من قبلنا من السلف يتسابقون ويسارعون إلى الجنان بألوان الطاعات والقُرَبْ، وكان على من أراد اللحاق بهم أن يشمّر عن ساقيه وينطلق، وإلا كان متخلفًا عن الركب.

أما اليوم فإن القوم سائرون إليها يمشون المطيطاء فلو شددت السير عنهم قليلاً لتفردت بالسبق.

أما التنافس في الدنيا فأمرها مفروغ منه، ورزق الإنسان مكتوب له فيها قبل أن يولد مهما سعى في الأرض وركض ركض الوحوش هنا وهناك ليستزيد منه، لن يأتيه إلا ما كُتب له ولم ينل من ركضه إلا التعب والنصب.

لقد أصبحنا نركض في طلب ما هو مضمون لنا وهو الرزق ونترك ما لم يضمن لنا وكأننا في غنى عنه وهو الجنة.

وهذا نقص في الإيمان؛ لأن العبد يعتقد أن عمله هو مصدر رزقه فلا يرده إلى الله وإن كان يؤمن بذلك قولاً لا فعلاً، لذلك فإنه يجاهد وينافس غيره في طلب المال، ويحتال في الحصول عليه فتجد هذا وأمثاله يكثر فيهم أكل مال اليتيم وأخذ الحقوق والمماطلة في أدائها وأكل الربا، كل ذلك في سبيل الحصول على الرزق،

وهؤلاء يُخشى عليهم أن يكون إيمانهم كإيمان الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

ومثل ذلك إيمان العامة من المسلمين الذين يولدون مسلمين ويلتزمون شرائع الدين فهم على الإيمان، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير منهم كما أوضح ذلك شيخ الإسلام في كتاب الإيمان لا يصلون إلى اليقين، ولو شُككوا في أمور الإسلام لشكوا فيها، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارًا ولا منافقين، ولكن ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأوا به الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، وهؤلاء إن لم يبتليهم الله بما يمحص به قلوبهم من المحن التي تبين صبرهم وثباتهم فماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا فبان عليهم الريب والشك ثم ماتوا على ذلك، ماتوا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق والعياذ بالله.

ولذلك حينما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة أسلم جميع أهلها فلما جاءت المحن والابتلاءات نافق من نافق، فلو ماتوا قبل الامتحان لماتوا على الإسلام، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَمِن

النَّاس من يَعْبُدُ اللَّه علىٰ حرف فإن أصابهُ خيرٌ اطْمأنَّ به وإنْ أصابتْهُ فتنةٌ انقلب علىٰ وجْهه خسر الدُّنْيا والآخرة ﴾ (الحج: ١١).

فهؤلاء يجمعون بين الإيمان والنفاق وقد يغلب أحدهما على الآخر، وهذا النوع من الإيمان يكثر فيه ترك الفرائض وانتهاك المحارم[١].

نعم ما أكثر هؤلاء في عصرنا هذا؛ تجدُ كثيرًا منهم يصومون ويصلون ويؤدون أركان الإسلام، ثم تجدهم يستثمرون أموالهم في البنوك الربوية أو يقومون بما يجرح إيمانهم من أعمال؛ كأن تتعلق قلوبهم بسبب من الأسباب حتى تغلب على توكلهم على الله. وغالبًا ما ينشأ ذلك عند الابتلاءات كما قال ابن تيمية؛ فمنهم من يشتد خوفه عند المرض فيعتقد أن شفاءه بيد الطبيب، وحتى لو ذكّرته بأن يتضرع إلى الله وينظر فيما قدمت يداه ويستغفر من ذنوبه لضحك منك وظن فيك الظنون.

ومن المعلوم أن ذلك ينافي التوكل المستلزم للإيمان (وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة)[٢] مع أن كثيرًا من الناس يفعلون عكس ذلك.

ويقول ابن القيم رحمه الله معلقًا على قوله تعالى: ﴿ إنَّ الله

---

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية، ص ٢٥٧ .

(٢) ابن تيمية، الإيمان، ص ١٢ - ١٣ .

يُدافعُ عن الّذين آمنُوا﴾ (الحج: ٣٨)، «فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه ولابد، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفاع الله عنه أتم دفاع، وإن مَزج مُزج له وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة كما قال بعض السلف من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة؛ قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[١].

فخلاصة القول أنه إذا اعتقد العبد في الأسباب وكان اعتقاده بنفعها قويًا أوكله الله إليها بحسب قوة اعتقاده فيها، وكما في المثال السالف الذكر فإن اعتقد المريض بنفع الطبيب له أوكله الله إليه، والطبيب بشر قد يصيب فيأتي بما ينفعه وقد يخطيء فيأتي بما فيه هلاكه.

رسالة إلى المثقفين:

لم يسلم كثير من المثقفين المعاصرين من خلط المفاهيم وغبش الرؤية في التمييز بين الأسباب والمسببات؛ فما أكثر الذين أحرزوا

(١) ابن قيم الجوزية. بدائع الفوائد. ج ٢، ص ٢٤٥ .

الشهادات العليا وأصبح لديهم من العلم القدر الذي جعل كلاً منهم يعتقد أنه بحرٌ في تخصصه.

لقد ظن المهندس أنه وعى جميع مشاكل البلاد فها هو يطمئن الناس ويعطي على ذلك الوعود أنه بالتخطيط السليم والوقت الكافي سوف يتم له السيطرة على أعقد المشكلات.

وها هو الجيولوجي يطمئن السذج من الناس عند حدوث الظواهر الطبيعية من زلازل وبراكين بأن ذلك ناتج عن ضعف في القشرة الأرضية في منطقة معينة ويسرد لهم الأسباب ويطمئنهم معلنًا بأنه ليس هناك داعٍ للخوف.

وها هو المحاسب يبرر إفلاس الشركة نتيجة تعرضها لكيت وكيت واختلال موازين العرض والطلب أو يبرر الغلاء وارتفاع الأسعار بمبررات أخرى.

وها هو عالم الفلك ينقل للناس أسباب الأعاصير والريح المدمرة مرجعًا سببه إلى وقوع المنطقة تحت تأثير كذا، ويرد انحباس المطر إلى وجود تأثيرات أعاقت مرور الرياح الباردة إلى المنطقة أو نحو ذلك.

وها هو الطبيب يجزم بأن السبب في مرض معين هو كذا وكذا وتراه يحذر المريض من انتكاس حالته أو الموت إن لم يلتزم بإرشاداته.

ومع أنني أسلم بصحة ما ذهبوا إليه في أكثر تبريراتهم العلمية، لكن لماذا لا يرد هؤلاء الأمر إلى الله أولاً ويأمرون بالتضرع إليه؟ فإن ما يعاقب الله به البشر على ذنوبهم من مصائب في المال والأنفس والثمرات تأتي وفق ناموسه الكوني الذي قدره منذ الأزل، فهو الذي حجب المنطقة عن التيارات الباردة ليحبس المطر، وهو الذي أضعف القشرة الأرضية في تلك المنطقة ليحدث الزلزال، وهو الذي أوهن الجسد ليكون عرضة للمرض، أو يظن هؤلاء أنه طالما وجد التفسير العلمي لظاهرة من الظواهر فهي إذن ليست من عند الله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾ (النساء: ٧٨). ألم يقل جل من قائل: ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ (الرعد: ٣١).

قد يقول قائل: إن هذا أمرٌ بدهي فكل شيء من عند الله، نعم يقول ذلك، ولكن أين الأفعال التي تدل على استيعاب الدرس والاتعاظ بالمواعظ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ (الأنعام: ٤٢ - ٤٣)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)﴾ (الأعراف: ٩٤) أين التضرع، أين شكر النعم وعدم الإسراف والتبذير، ألم يقل عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

بركاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، ألم يقل سبحانه حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ (نوح: ١٠ – ١٢).

إنني أخشى أن نكون كالذين قال الله فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥).

لقد أسهم هؤلاء جميعًا في إبعاد الناس عن خالقهم، وساعدوا في فصل الأسباب عن مسببها، أنسوا الخلق التوكل على ربهم، وتراهم لا يردون الأمر إلى الله أو إلى الذنوب والمعاصي، طالما وجودوا التفسير العلمي، خشية أن يُتهموا بقلة العلم أو التخلف عن ركب الحضارة؛ يقول سيد قطب رحمه الله: «إن مناهج البحث التي يسمونها (علمية) في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه، و «المنهج الإيماني» لا ينقص شيئًا من ثمار «المنهج العلمي» في إدراك الحقائق المفردة، لكنه يزيد ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض، وردّها إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها»(١).

ولعل السبب في ذلك يعود إلى المنبع الذي استقيت منه هذه

(١) في ظلال القرآن: تفسير سورة (ق)، آية «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» بتصرف.

العلوم، فقد استقاها طلابها من غير بلاد المسلمين حيث نالوا شهاداتهم وعادوا لتطبيقها وتدريسها في أوطانهم كما هي علمية بحتة، لم يضيفوا إليها الطابع الإيماني والصبغة الإسلامية التي تميزهم عن غيرهم، فهم يدرِّسونه لطلابهم علمًا ماديًا صرفًا خاليًا من اللمسات الإيمانية التي تبث الروح فيه وتزيد من ربط العبد بخالقه، ولعل من أهم التخصصات العلمية وأكثرها أثرًا على أفراد المجتمع علم الطب، وإن كان علم الفلك وعلوم الأرض لا يقلان تأثيرًا وأهمية، ولكن الطبيب يأتيه مرضاه في أشد حالات الضعف والحاجة إلى نصائحه وإرشاداته، ماذا عليه لو أنه ربط لهم العلم بالإيمان ووصف لهم الدواء ودعاهم إلى التوجه إلى الله بالدعاء مع تذكيرهم بالأعمال الصالحة والابتعاد عن الذنوب المسببة لكل بلاء؟ إن المريض شديد التأثر لما يقوله الطبيب، ولو نصحه بالبعد عن الماء الذي فيه حياته لفعل.

إن جماعات التنصير في البلدان الفقيرة تلقي مسؤولية عظيمة على كواهل الأطباء في عملية التنصير، لأن المريض يكون في حالة أضعف ما يكون عليها حينئذ، وفي حالة من التلقي أشد ما تكون وهو بين يدي الطبيب، إنهم وعوا رسالة الطبيب ومدى تأثيره على المرضى والناس عامة، ولو وعى الناس هذا الأمر لقلت الحاجة إلى الأطباء وإلى الدواء.

إن عدم ربط العلم بالإيمان في نظر الإسلام جهل .. نعم فقد يكون (الدكتور والبروفسيور والعلامة) جاهلاً ولا عجب، فهو على علمه يجهل العلاقة بين العلم والإيمان، بين الأسباب ومسببها (سبحانه وتعالى)، بين المخلوقات والخالق، ألم يقل جل شأنه ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (٧٢)﴾ (الأحزاب: ٧٢)، نعم إنه جهول مهما وصلت درجته العلمية، ومهما ارتقى في سلالم المعرفة، إذا كان لا يقدر الله حق قدره، فيحسب أنه بمجرد ارتقائه في درجات العلم وحيازة المادة يكون شيئًا مذكورًا، إن هذا وأمثاله ضعاف عزَل .. عزلٌ من السلاح الأمضى، تسلحوا بسلاح العلم ونسوا أن يتسلحوا بسلاح الإيمان، وسلاح العلم وحده لا يكفي .. لذلك فهم عرضة للسقوط والانهزام في أي لحظة، ولهذا تراهم ينقضون أفكارهم بين وقت وآخر، ويدحضون النظرية بأخرى يثبت خطؤها فيما بعد.

إنني لا أطالب الطبيب وغيره بسرد محاضرة دينية قبل كل علاج، ولكن أطالبهم فقط بمحاولة الربط - في كل مرة ولكل مريض -- بين العلاج الطبي والعلاج الإيماني؛ فالعلاج الإيماني هو المعوَل عليه أولاً وأخيرًا وما العلاج الطبي إلا سبب بسيط لطمأنة المريض في بعض الأحيان، هذه الحقيقة يجب أن يفهمها كل مريض من قبل الطبيب حتى تكون أبلغ أثرًا وأكثر استجابة.

لقد اكتشف هذه الحقيقة مؤخرًا بعض علماء أمريكا الكبار؛ فقد اتجهوا إلى علاج مرضاهم ذوي الأمراض المستعصية كالسرطان أعاذنا الله منه بالابتهال إلى الله والثقة في أن الشفاء من عنده فدعّموا علاجهم الطبّي بالعلاج الروحي وذلك لما وجدوا فيه من قوة علاجيّة عجيبة.

والله سبحانه يجيب دعوة المضطر وإن كان كافرًا أحيانًا ما دام الدعاء موجهٌ له وحده، وهذا من رحمته سبحانه، فما بالك إن كانت الدعوة صادرة من مؤمن موحد. فهل نكتشف نحن هذه القاعدة كما اكتشفها الكثيرون من أطباء الغرب، أم أننا يجب أن ندرسها على أيديهم لكي نصدقها ونعمل بها؟

يقول الأستاذ محمد قطب: (ولقد نحتاج أن نتعلم من الجاهلية المعاصرة وسائلها البارعة في تنمية الاستعدادات والمواهب - وهي وسائل بارعة حقًا - ما دام الخط قد انقطع بيننا وبين واقعنا التاريخي الذي كانت فيه الأمة الإسلامية أبرع أمة في الأرض وأحسنها استخدامًا لمواهب أبنائها واستعداداتهم الفطرية .. ولكن الذي يحدث حين نرسل أبناءنا ليتعلموا في معاهد الغرب وجامعاته وسائل تنمية هذه الاستعدادات، أنهم لا ينقلون الوسيلة وحدها كما ينبغي أن يحدث، إنما ينقلون الوسيلة ملفّعة بالغاية،

فيختلط الخير بالشر - ويغلب الشرّ - لأن أبناءنا هؤلاء - حين يعودون - يعجزون عن استخلاص الوسيلة وحدها وتطويعها لأهداف أخرى من عند أنفسهم، لأننا نرسلهم - في الحقيقة - وليست لهم أهداف ذاتية ولا منهج ذاتي يفكرون به ويسلكون، لأننا - في حقيقة الواقع - لا نعيش الإسلام منهج حياة، فلا نملك ما نتميّز به عن الجاهلية السائدة في الأرض!.

ولقد كانت أوروبا في بدء نهضتها ترسل أبناءها ليتعلموا العلم في مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وغيرها من أماكن الحضارة الإسلامية، فيتعلمون الوسائل، فيتعلمون الوسائل وحدها، ويرفضون أن يأخذوا معها أهدافها الإسلامية وهي الحق المنزل من عند الله، ويصرون - يومئذ - على باطلهم الذي كفروا به اليوم فأسلمهم إلى الضياع، أفنكون نحن على هذه الدرجة من الهوان فنعجز عن فصل الوسائل عن الغايات المنحرفة التي تتلفع بها ونصر على أن نتبع أوروبا في طريق ضياعها ونحن نملك الحق المنزل من عند الله؟!)[١].

أسباب المصائب:

قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مُصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ (الشورى: ٣٠).

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ج ٢، ص ٢٨١.

بالتمعن في هذه الآية الكريمة نجد أن ما أصاب الإنسان من مصيبة فبما كسبت يداه من ثلاثة أوجه:

١- إما أن يكون السبب تقصيراً منه في الأخذ بالأسباب:

قال تعالى: ﴿ولا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التَهْلُكَةِ وأَحْسِنُوا﴾ (البقرة: ١٩٥)، فتكون المصيبة بسبب الإهمال والتفريط في هذه النصيحة، كأن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة ويخاطر بنفسه أو ماله مختاراً؛ فإنه عندئذ يتحمل مغبة ما يحدث له، انظر إلى من ينزل إلى البحر وهو لا يعرف السباحة مثلاً أو يقود (السيارة) في الطريق العام وهو لا يملك معرفة بقيادتها، أو يشرب (الدخان) فتصيبه الأمراض.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣١)، فهي نصيحة أخرى من خالق الإنسان الأعلم به، فإن لم يتبعها وأفرط في الطعام كما هو الحال الآن في كثير من الناس، فإنه يتحمل تبعة ذلك، وما يحدث له من أمراض، وانظر إلى أمراض اليوم وأسقامها كيف تنوعت؛ منها ما يُصيب المعدة أو القلب أو الأمعاء ومنها ما يُصيب الجسد كله كالسرطان عياذًا بالله، أليس أكثرها بسبب مخالفة هذه النصيحة؟

٢- بسبب الذنوب والمعاصي:

قد تحدث المصائب على غير اختيار الإنسان، وربما يكون قد بذل ما في وسعه من أسباب للحيلولة دون حدوثها، فإن حدثت بعد ذلك فإنها قد تكون بسبب الذنوب والمعاصي وهي على نوعين والله أعلم:

أ- إما أن تكون عقاباً ونكالاً:

فكل من بارز الله سبحانه بالمعصية فإن شاء أمهله وإن شاء أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ قال تعالى: ﴿ذلك لهم خزيٌ في الدُّنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ (٣٣)﴾ (المائدة: ٣٣).

ب- وإما أن تكون رفعة وتمحيصاً:

وذلك لأولياء الله الصالحين والذين أراد الله بهم الخير في الآخرة ولكن لم يعملوا من الأعمال ما يؤهلهم للدرجات العلا في الجنة فتكون المصائب رفعة لدرجاتهم إن صبروا عليها، أما الأنبياء والصالحون فهي تطهير لهم وقربة إلى الله.

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه

يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(١).

وذلك مصداق قوله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»(٢).

٣- قد يجتمع على العبد التقصير في الأخذ بالأسباب مع الذنوب والمعاصي كشرب الخمر مثلاً والزنا وغيره نسأل الله السلامة.

دنيانا وأخرانا:

قال تعالى: ﴿وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)(٣).

تأملت هذه الآية الكريمة، فوجدت أن لفظ ﴿وَابْتَغِ﴾ قد ورد مؤكدًا على أمر عظيم. وهو عبادة الله الخالصة وتسخير ما أنعم الله به على العبد في طاعته.

ونظرت في جملة ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ فما وجدتها أشارت إلا إلى

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، حديث رقم (٤٠٢٤) وقال الالباني حسن صحيح.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد، ٤ / ٦٠٢ ورقمه ٢٣٩٩ وصححه وقال الالباني صحيح.

(٣) سورة القصص، الآية ٧٧ . مع أن المقصود بهذه الآية هو قارون أو غيره - كما في ابن كثير - إذ وعظه قومه أن يستعمل ما وهبه الله من مال في طاعة ربه ولا ينس التمتع بما أباح الله له الدنيا من مآكل وملابس ومساكن ومناكح إلا أنها عامة أيضًا لأن في القرآن عظة للجميع وهو صالح لكل زمان ومكان.

تلك الموارد الأربعة السالفة الذكر والتي سوف يُسأل المرء عنها يوم القيامة، وهي: المال والعلم والعمر والصحة المجموعة في الأحاديث المشار إليها سابقًا في فقرة: نظرات ونظريات دنيوية.

وتفكرت في لفظ ﴿ولا تنس﴾ فوجدت أن التذكير هنا قد ورد لأسباب منها:

- التأكيد على أن الدنيا وسيلة وليست غاية أو هدفًا. إذ لم تكن الوسيلة يومًا أكثر أهمية من الغاية، ولكن لا ينبغي على من كانت غايته آخرته أن ينسى ما يبلغه الوصول إليها.
- كما أن احتمالية النسيان هنا في قوله ﴿ولا تنس﴾ تؤكد على حقارة أمر الدنيا وتفاهتها.
- أن الاهتمام بعظائم الأمور والانشغال بها من شأنه أن يُنسي ما سواها من الأمور الثانوية التي هي الدنيا واحتياجات الفرد فيها، فيحسن تذكير العابد هنا بألا ينشغل بعبادته لدرجة تنسيه دنياه وما يحتاج إليه فيها.

وقد نسى طلاب الآخرة، في خضم عبادتهم لربهم، أمر الدنيا وما يحتاجون إليه فيها فضلاً عن زخارفها فكان ذلك التذكير مناسبًا لهم.

ها هو أبو هريرة رضي الله عنه يلازم رسول الله ﷺ ليأخذ منه فينسيه ذلك دنياه فيقول لأصحابه لقد انشغلتم بالدنيا وانشغلت بملازمة رسول الله ﷺ، وأي دنيا تلك التي انشغل بها صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم، وماذا كان يقول أبو هريرة لو رآنا؟!

وها هو أحمد بن حنبل كان يصلي ثلاثمائة ركعة في كل يوم وليلة، ويختم القرآن الكريم في سبعة أيام، وكان كثير الدعاء والذكر، هذا فضلاً عن انشغاله في طلب العلم وتعليمه.

وكان يدعو فيقول (اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكفلت لنا به)[١].

ومنهم من أنسته العبادة معاشرة أهله ومؤانستهم حتى ذُكر بأن لأهله عليه حقًا.

أما نحن فإننا بحاجة إلى من يذكرنا بالهدف الأسمى الذي خلقنا من أجله .. نحتاج إلى من يوقظنا بشدة ليذكرنا بالآخرة ولله المستعان.

وظائف شاغرة:

عجبًا لنا .. ما أن تعلن الصحف عن وظائف شاغرة، محدودة وقليلة .. سائق .. سكرتير .. مهندس .. إلا ويتهافت الناس عليها تهافت الفراش على النار، أمّا حين يعلن القرآن - ويا لشرف الإعلان - عن وظائف شاغرة، حيث أرقى المناصب، وأسمى

(١) انظر أحمد بن حنبل إمام السُنّة، لعبد الغني الدقر. ص ٢٥٥ . ٢٥٦ .

المراتب، ينكص الجمع ويولّون الدَبر!!، فيا ويح المتنافسين ما أزهدهم أين هم؟ إنهم قليل .. الوظائف شاغرة ومتوفرة بل كثيرة تستوعب كل من تقدم لها .. ولكن المتقدمين لشغلها قليل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ (الواقعة: ١٣ - ١٤).

● إذا كثر المتنافسون على الوظيفة زادت شروطها ومتطلباتها؛ وذلك حتى تتميز نخبة منهم فتفوز بذلك المنصب بجدارة. لذلك أرهق ثلة الأولين أبدانهم في العبادة، سهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم، وقد شغلوا أوقاتهم بالطاعة وحفظوا أنفسهم عن المعصية. كل منهم يريد الفوز بتلك الوظيفة، تلك الرتبة العالية، والمنزلة السامية، منزلة المقربين - فعزيز أن يتميز فضلاء منهم وكلهم فاضل.

مثلهم في ذلك مثل طلاب في فصل كلهم أوائل متميزون، كل يسعى لحيازة الدرجات العلا، فأضحى التنافس بينهم على أشده؛ فما أصعبه من تنافس؛ يواصل أحدهم ليله بنهاره منكبًا على كتبه ودراسته حتى يفوز ويتفوق على أقرانه.

أما اليوم بعد أن قل المتنافسون على الوظيفة، قلت شروطها ومتطلباتها، فكل النفر المتقدمون أوائل.

مثلهم في ذلك مثل طلاب في فصل كلهم كسالى مستهترون، فإذا تميز نفر منهم حازوا الدرجات العلا بأسهل ما يكون.

انظر كيف كان التنافس على الصلاة في الصف الأول زمن الصحابة والتابعين؛ لقد كان على من أراد إدراكه منهم أن يذهب قبل الصلاة بقدر كاف وربما قبل النداء، أما الآن فمن السهل إدراكه ولو جئت وقت إقامة الصلاة في بعض المساجد، وما ذلك إلا لقلة المتنافسين.

ومع ذلك فإن هؤلاء القلة أيضًا قد يفضلون في الأجر من سبقهم من الأولين المجتهدين بخمسين ضعف؛ سئل رسول الله ﷺ عن آية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة: ١٠٥)، فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم» قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عتبة قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم قال: بل أجر خمسين منكم»[١].

فيظهر هنا أن أجر القليل من الآخرين أكبر من أجر الأولين،

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ٢ / ١٠٨ برقم ٣٨٥ وأبو داود في السنن وقال الألباني ضعيف لكن فقرة أيام الصبر ثابتة وقال عن رواية الترمذي ضعيف وبعضه صحيح.

كيف لا وهم يجدون على الحق معينًا ولا نجد[١].

فالزمن زمن غفلة، أحاطت بأهله الفتن والشهوات والمشاغل، وكلما زاد إعراض الناس وغفلتهم زاد أجر العاملين وتضاعف.

وقد يعجب سائل فيقول كيف لمجتهد من هذا العصر أن يصل إلى درجة المقربين ولم يعمل عمل أولئك الثلة من الأولين؟

والجواب أن الله سبحانه هو الحكم العدل إذا حاسب العبد نظر إلى بيئته وعصره.

أرأيت إذا حاسب أحد المدرسين طلابه بالنظر إلى طلاب له سابقون كان يدرّسهم منذ ثلاثين سنة مثلاً، فيقول لهم: سوف أقوّم تحصيلكم مقارنة بأقران لكم كانوا يدرسون هنا منذ ثلاثين سنة وقد كانوا فطاحل متفوقين .. إنهم بلا شك سوف يرسبون إذا ما عُوملوا بهذا المقياس. ولله المثل الأعلى، فليس بالضرورة على من عمل لنيل درجة المقربين من المتأخرين أن يوزن عمله بعمل أحد من الصحابة ﷺ، فلكل بيئته وظروفه التي تساعده على العبادة أو تلهيه عنها.

---

(١) وهذا لا ينافي أن فضل صحابة رسول الله ﷺ أعظم من غيرهم. فهؤلاء يزيدون عليهم في الأجر وليس في الفضل .. فقد قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...» رواه الترمذي، فلن يبلغ أحد من المتأخرين م أحدهم ولا نصيفه.

ولكن المهم هنا .. أن على المرء محاولة سبق أقرانه في بيئته في كل طاعة، وعليه أن ي ستمر على ذلك فلا تفتر عزيمته حتى يصل إلى الهدف وهو الجنة؛ فمن تطلع إلى الجنة هدفًا لن يتوقف عن العمل لها طوال حياته؛ فكل هدف سوى الجنة يمكن أن يحرزه الفرد في الدنيا ثم يصيبه الفتور بعده، وإذا مضت حياته دونما هدف يحدده لنفسه ملّ وسئم، وأصبحت حياته رتيبة؛ يومه كأمسه، لا شيء يحفّزه على مواصلة الطريق، ولا هدف يسعى للوصول إليه فيسعد بإحرازه .. قال أحد المبتعثين الذين كانوا يدرسون بالخارج: كنت هناك أسعى لنيل درجة الدكتوراه، وحينما نلتها أحسست بالفرحة تغمرني، وبعدها عدت إلى وطني وانخرطت في سلك التدريس .. أضحت حياتي رتيبة مُملّة، تسير على وتيرة واحدة خاصة بعد نيل درجة الأستاذية (بروفيسور) فلم أجد ما أسعى إليه بعد ذلك، فوددت لو أعود فأكون طالبًا من جديد: فإن أردت يا أخي أن يكون سعيك نحو هدف متجدد مستمر لا ينقطع فاجعل نيتك دائمًا رضوان ربك والدار الآخرة، فكلما أحرزت هدفًا صغيرًا عدته (شوطًا) قطعته نحو الهدف الأكبر؛ فإنك عندئذ لن تشعر بالملل حتى وإن استوفيت عملك الدنيوي الذي ابتغيت به وجه الله وأصبحت موظفًا متقاعدًا، فاعتبر أنك قد

انخرطت الآن في سلك آخر أو وظيفة أخرى، فسخر ما حباك الله به من علم في طاعته، وفرغ نفسك لعبادته.

إذا تأملت طبيعة الحياة في هذا العصر؛ يدخل الفرد طفلاً صغيرًا إلى المدرسة، ثم يرتقي فيها سنة بعد أخرى حتى يصل إلى الجامعة، ثم يتخرج منها ليبحث عن وظيفة فينخرط فيها ليؤمن لأهله معيشتهم، ويستمر على ذلك حتى يبلغ سن الستين، فإذا تقاعد أصابه الإحباط، وشعر أنه لم تعد له قيمة في هذه الحياة، وكأن الهدف الذي كان يسعى من أجله قد انتهى. فهو الآن على هامش الحياة، فلو أن المتقاعد وعى أن هذه الوظيفة ما هي إلا وسيلة للكسب، فإذا تبلغ منها ما يكفيه تفرغ لعبادة ربه لذهب عنه ذلك الإحساس، ولزالت عنه تلك الكآبة، وذلك لأنه عرف أنه كان يسعى لنفع غيره وعليه الآن أن يتفرغ لنفسه ويسعى لمعاده.

قال أحد الحكماء: حينما كنت طفلاً صغيرًا كان القلم مرفوعًا عنك، ولما كبرت أصبحت شابًا طائشًا مهدارًا لوقتك، ولما تقدمت بك السن غدوت شيخًا هرمًا. فمتى تعبد ربك يا هذا؟

أجر العامل:

ينبغي أن نعلم أن أجر العامل يتضاعف عند الله بأمور:

١- بحسب صلاح العامل وقوة إيمانه وفضله عند الله:

وكما يقول ابن القيم رحمه الله فإن تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان.

فقد يثاب العامل التقيّ الصالح على العمل نفسه أكثر من غيره؛ وذلك لأن العمل إذا رُفع إلى الله من عبد صالح معروف لدى الملأ الأعلى في السماء بتقواه ومشهود له عندهم بالخير والمحبّة، تقبّله الله وضاعف له الأجر من جهتين:

أ- لأنه عمل طيب خالص لوجهه تعالى.

ب- لأنه صادر من عبد محبوب معروف عند الله بتقواه.

وفي الحديث القدسي «فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء»(١) وقال: «وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(٢).

وكثيرًا ما يحدث هذا التفضيل في مقاييس البشر؛ ألا ترى كيف أن الشركات والمستشفيات تضاعف أجر الطبيب أو المهندس مثلاً إذا كان (استشاريًا) حاصلاً على درجة الأستاذية (بروفيسورًا) ويزيد أجره إذا كان معروفًا على مستوى البلاد، بغض النظر عن عمله، فقد يتساوى تشخيص الطبيب الأخصائي

(١) صحيح البخاري رقم الحديث ٥٩٠١ .
(٢) صحيح البخاري رقم الحديث ٧٢٣٩ .

المبتدئ في المهنة مع ذلك الاستشاري المشهور ولكن الأخير يأخذ من الأجر أضعافًا مضاعفة، ولله المثل الأعلى وإذا كان هذا التفاضل في الدنيا فكيف به عند الله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ (الإسراء: ٢١).

٢- بحسب موقع العمل من جهتين:

أ- من حيث جدواه ومنفعته، إما بحسب قوة حاجة المنتفع إليه، وإما بعموم نفعه ووصوله إلى شريحة كبيرة من المسلمين، وقد ورد الحديث الشريف: «خير الناس أنفعهم للناس»(١) فكلما عظم نفع العمل للمسلمين، كان أجره أعظم عند الله، كإنشاء المستشفيات والمؤسسات الخيرية التي يصل نفعها إلى عدد كبير من الناس، ونشر الكتب النافعة وما إلى ذلك ما دام ذلك خالصًا لوجهه تعالى.

ب- من حيث يقظة العبد فيه وإخلاصه ونيته عند الله؛ فإذا أدى العامل عمله على العادة والغفلة ولكن النية فيه التقرب إلى الله فتراه مشغولاً بطاعة الله وقلبه لاه عنه فإنه مقبول بإذن الله كما قال ابن القيم رحمه الله، ولكن هذا العمل إذا رفع إلى الله لم يقف تجاهه ولم ينظر إليه، ولكن يوضع حيث توضع دواوين الأعمال

(١) رواه الطبراني في الكبير وحسنه الألباني في صحيح الجامع ورقمه في صحيح الجامع ٣٢٨٩.

حتى تعرض عليه يوم القيامة فيثيبه على ما كان له منها ويرد عليه ما يرد وجهه به منها.

فيثيبه على هذا العمل بمخلوق من مخلوقاته من القصور والأكل والشرب والحور العين، وأما إذا كان العمل خالصًا لله تعالى، متعلق صاحبه بالله على الدوام فإنه إذا رفع إلى الله وقف تجاهه فينظر إليه عَزَّ وَجَلَّ فإذا نظر إليه تقبّله ورضي عنه وأرباه ونمّاه إلى أضعاف كثيرة، وأعلا درجة صاحبه ومنزلته عنده، وأعطاه بغير حساب[١].

٣- بحسب طاقة العبد وجهده؛ سئل رسول الله ﷺ أي الصدقة أفضل فقال: «جهد المقل»[٢]، فقد يبذل العامل القويّ المعافى عملاً مساويًا لما يبذله الضعيف العاجز فيضاعف الله للضعيف ويجزل له الثواب لأنه بذل ما في وسعه فيه، وقد ينفق الفقير دراهم معدودة يبتغي بها وجه الله فينال عليها من الأجر ما لا يناله الغنيّ الذي ينفق الآلاف المؤلفة، وما ذلك إلا لأن الفقير بذل أقصى ما يستطيع وأفضله، وأحبّه إلى نفسه، وأما الغنيّ فربما يكون قد أنفقه من فضول أمواله التي لا حاجة له بها والتي لا

(١) انظر ابن القيم، الوابل الصيّب، ط ٢، ص ٣٨ .

(٢) جزء من حديث رواه أحمد والدارمي وأبو داود وابن حبان والبيهقي وغيرهم وهو في مسند أحمد ج ٤ / ٤١٩ برقم ١٥٠٩٩ . وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١١١٢ .

تمثل شيئًا بالنسبة إلى رأسماله الكبير؛ ولذلك قال ﷺ: «سبق درهم مئة ألف»، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مئة ألف، فتصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما، فتصدق به»(١).

٤- لفضل الزمان والمكان كفضل شهر رمضان والعشر من ذي الحجة على غيرهما إذ تضاعف فيهما الحسنات. ومن أفضل الأماكن عند الله التي يضاعف فيها الأجور الحرم المكيّ ومسجد رسول الله ﷺ والمسجد الأقصى، والمسجد القديم الذي تقام فيه الجمعة ويكثر فيه المصلون له فضل على غيره من المساجد .. وهكذا.

٥- يتضاعف العمل في مكان الغفلة وزمن الغفلة؛ فكلما اقترب الناس من الساعة ازدادوا غفلة وبعدًا عن دين الله وشريعته؛ وذلك لكثرة الشهوات وفتح أبواب النعم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الأنعام: ٤٤).

وقد فتحت الدنيا في هذا الزمان على كثير من الناس، وجاشت الأرض بصنوف النعم التي لم يمدّنا الله بها حبًا وكرامة،

(١) رواه ابن حبان في صحيحه وأحمد في المسند والنسائي والبيهقي والحاكم في المستدرك وهو في صحيح ابن حبان ٤ / ٣٢ ورقمه ٣٣١٢ وقال الحاكم حديث صحيح على شرط مسلم. وهو في صحيح الجامع برقم ٣٦٠٦.

وإلا لكان رسول الله وصحابته أولى بها منّا، ولكنه الابتلاء والامتحان، فكلما أحدث المفرطون ذنبًا، أحدث الله لهم نعمة، حتى يُغرقهم بالنعم من كل حدب وصوب يستدرجهم بها، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (المؤمنون: ٥٥ – ٥٦).

وبنظرة سريعة على مجتمعاتنا نرى كيف كان فتح النعم نقمة إلا على من رحم الله؛ فتح الله على الأسر فتمادوا في الترف والتنعم، وتهافتوا على كل تفاهة تأتيهم من الغرب أو الشرق، قلدوا الكفار في ملابسهم وهيئاتهم وقصات شعورهم. ولم تعد الخلاعة والتفسخ وأفلام الجنس حكرًا على بلاد الكفر فقد غزت بضاعتهم الفاسدة بلاد المسلمين، ومنذ أن اعتلت تلك الأطباق السوداء أسطح منازلنا، اعتلى قلوبنا الرّان فأحلكها، وطمس على بصائرنا فأظلمها، وإذا كان الناس قد استبشروا بدخوله بلاد المسلمين هو وشبكات الإنترنت فإننا لا نراه إلا نذير شؤم، وسحابة سوداء تذكرنا بسحابة قوم عاد التي فرحوا بها واستبشروا وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُو مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ (الأحقاف: ٢٤).

نعم نقول ذلك ونحن نعلم ما فيهما من فائدة، ولكنها فائدة

يمكن الاستعاضة عنها بغيرها، أما ما فيهما من مضرّة فلا يمكن التجاوز عنها، وما ضيّعناه[١] أو ما سنضيعه من وقت فيهما لا يمكن استرجاعه، فيبقى حسرة وندامة، ولسوف تتقطع عليها أنفسنا يومئذٍ ولات ساعة مندم.

نقول وعلى كثرة هذه الفتن وانهمار وابل الشهوات، فإن أجر العامل في آخر الزمان يزداد ويتضاعف لمعاناة المؤمن وصبره على ما يلقاه.

ففي الحديث، قال ﷺ: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطًا قيراطًا ونحن كنا أكثر عملاً. قال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هل ظلمتكم من أجركم من شيء. قالوا: لا، قال فهو فضلي أوتيه من أشاء»[٢].

---

(١) هذا إن كان ما ضيعناه من وقت في مباح لا نفع فيه فما بالك بغير المباح فإن الإحصائيات أشارت إلى أن الاستعمال السائد للإنترنت أي حوالي ٧٠٪ على العالم أجمع بما فيه البلاد الإسلامية هو التسلية المحرّمة.
هذا ولا يخفى على أحد ما فيهما من فائدة جمّة لمن أراد الفائدة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، ١ / ٢٠٤، ورقمه ٥٣٢ .

دلّ الحديث الشريف على أن عمل اليهود والنصارى كان أكثر من عمل المسلمين ولكن أجرهم عليه أقل.

وقد وسّع الله على هذه الأمة، وأحل لها من المباحات ما حرّمه على اليهود؛ فقد كانوا في حرج وضيق بسبب ذنوبهم وقد كلفوا بتكاليف شاقة كقتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، وقد اشتهر عبّاد بني إسرائيل بالانقطاع للعبادة ونبذ الدنيا.

كما اشتهر قساوسة النصارى بالتبتل في الأديرة ما لم يكن ذلك عند المسلمين؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ . . .﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وكما كان عمل اليهود والنصارى أكثر وأجرهم أقل فإن أمة محمد ﷺ في عصرها الأول عملها أكثر، فقد يعمل أحدهم عملاً من صلاة أو صدقة أو غيره ثم يأتي مسلم من آخر الزمان فيعمل العمل نفسه فيضاعف له أجره إلى خمسين ضعف كما أسلفنا[١].

ومن أماكن الغفلة على مدى الزمان، التي يضاعف فيها الأجر على العمل الصالح، الأسواق وأماكن الملاهي وكل اجتماع لا يذكر فيه اسم الله، وقد بلغ من اهتمام الصحابة والسلف الصالح

(١) انظر فقرة وظائف شاغرة.

رضوان الله عليهم وحرصهم على مضاعفة الأجور أن كان بعضهم يمر بالسوق فيدخله لا لشيء ولكن ليذكر الله فيه فينال الثواب المضاعف وقد ورد في الحديث: «من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»(١). وفي رواية «وبُني له بيتًا في الجنة»

واللبيب الفطن هو الذي يحاول الجمع بين هذه البنود الخمسة ما استطاع فيضاعف الله له الثواب أضعافًا مضاعفة.

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث غريب وحسّنه الألباني ورقمه في صحيح الترمذي ٣٤٢٨.

الاستثمار الأمثل

نظرة إلى (المليارديرات) في عصرنا الحالي ..

قبل عشرين إلى ثلاثين عامًا مضت في دول النفط وغيرها مثلاً لم يكن هؤلاء المليارديرات شيئًا يذكر. ومع استغلالهم لأيام (الطفرة) التي كانت في تلك الأيام استطاعوا أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من ثروات طائلة، مع أنهم في بداية الأمر لم يكن لديهم من الأموال ما يميزهم عن غيرهم في ذلك الوقت، فكيف استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الغنى الفاحش فيما لم يستطع غيرهم، مع امتلاكهم لنفس الموارد؟

بإلقاء نظرة فاحصة عليهم في تلك الحقبة من الزمن نجد أنهم استثمروا أموالهم القليلة في مجال لم يكن يستقطب إلا القلة القليلة من الناس فمعظمهم عنه غافلون، وما ذلك إلا لافتقار هذا المجال إلى المكسب العاجل ولدخول عنصر المخاطرة فيه إلى حد كبير، وهذا المجال الذي نحن بصدده هو مجال العقار والاستثمار في الأراضي البعيدة عن العمران؛ خذ مثلاً على ذلك مدينة جدة بالسعودية، كانت جدة مدينة صغيرة وكان الاستثمار في قطع

الأراضي البعيدة عنها والقريبة من البحر مثلاً أسعارها زهيدة جدًا فقد كان سعر المتر في تلك المناطق النائية لا يتعدى عدة ريالات ولم يكن أحد يظن أن ما يفعله هؤلاء هو في الحقيقة استثمار، أو أن له أدنى قيمة، وكان أكثر الناس زاهدين فيه لأنه كما أسلفنا استثمار بعيد الأمد، بل ربما اتهموا هؤلاء المستثمرين بالجنون ودفن أموالهم في التراب، حيث كانوا يستبعدون جدًا امتداد العمران إلى تلك المناطق النائية أو أنها سوف تكون ذات قيمة في يوم من الأيام.

إن هذه الثلة من أفراد المجتمع نظرت في استثمارها إلى المدى البعيد، فلم ترض بالأرباح اليسيرة العاجلة فأصبحت بذلك هي الثلة السابقة بالأموال، فقد صبروا على عقاراتهم، وكان همهم هو جمع المخططات فقط حتى مر عليها الزمن وارتفعت قيمتها بعد ذلك إلى مئات الريالات للمتر الواحد، فهم اليوم أعيان البلاد وهم طبقة التجار الميسورين المقربين إلى وجهاء المجتمع.

وأضحى أولئك الذين كانوا بالأمس يتهمونهم بالجنون ودفن أموالهم في التراب من أصحاب الملايين والمكاسب السريعة .. أصبحوا ينظرون إلى هؤلاء نظرة إكبار يشيرون إليهم بالبنان، فهؤلاء هم طبقة الأذكياء الذين تاجروا بأموالهم حيث كانت

البضاعة كاسدة، والسوق رخيصة، فجمعوا وجمعوا حتى تكدست لديهم الأموال، فهم في نظرهم الآن هم الأذكياء الذين أحسنوا استغلال الفرص، استطاعوا أن يدخروا لغدهم حيث ولّت الفرص إلى غير رجعة.

العروض المربحة:

أيها الأذكياء، يا من اغتنمتم الفرص زمن الطفرة، زمن الغفلة، هل لكم في استثمار أفضل، وغنى أكثر، مهلاً لقد ظننتم أن هذه الفرص هي التي ينبغي أن تغتنم قبل أن تذهب فلا تعود، انتبهوا فإن الفرصة اليوم قائمة، والعرض سار لغنيمة أكبر وربح أوفر، لقد ظننتم أن استثماركم هو الأفضل وعددتم أنفسكم أذكياء، تنبهوا فإن هناك من هم أكثر منكم دهاءً وأشد ذكاءً قد ذهبوا بما هو أبعد أجلاً في نظركم ولكنه أنفس وأغلى، إنها الحسنة والله، إن عدم وضوح القيمة الفعلية للحسنة في الدنيا جعل كثيرًا من الناس يستهين بها، فهو لا يستطيع صرف هذه الحسنات على سبيل المثال لشراء أو امتلاك أي شيء، أو تحصيل أي منفعة مادية بها لذلك فهو في غفلة عنها.

إنّ الريال أو الدينار أو الدولار أو امتلاك المادّة عمومًا تُعدَ اليوم القيمة التي أضحى الإنسان يقوّم بها في الدنيا، فهو يوزن

بما معه من مال فإن كان من الذين لا مال لهم فهو صعلوك لا قيمة له ولا وزن.

فإذا كانت المادة كذلك في الدنيا ترفع أقوامًا وتضع آخرين في أعين البعض، فإن الحسنة هي العملة التي يقوَّم بها الفرد يوم القيامة وهي التي يرفع الله بها أقوامًا ويضع آخرين بفضله ورحمته.

فمن نظر إليها الآن نظرة بعيدة الأمد كنظرة أولئك النفر من أغنياء الطفرة لجمع منها كما جمع أولئك من العقارات والمخططات، فكم هي زهيدة الآن في نظر الناس، وإذا كان سعر المتر من تلك العقارات قديمًا حفنة من الريالات، وهو الآن يساوي الافًا مؤلّفة منها، فإن قيمة الحسنة الواحدة يوم العرض والحساب تساوي الدنيا وما فيها .. نعم أعود فأؤكد أن قيمة الحسنة الواحدة فقط تساوي جميع ما يملك الفرد بل الدنيا كلها وما حوت من أموال ولذائذ وشهوات.

وأعني بلفظ (القيمة) هنا: ما يدفعه الفرد لامتلاك شيء ما.

كيف تكون قيمة الحسنة الواحدة تساوي الدنيا وما فيها وأكثر؟!

لنضرب مثلاً يوضح ذلك:

تخيل - أخي الكريم - أنك الآن في يوم العرض والحساب وقد تساوت حسناتك مع سيئاتك، ووجدت أنه لا بُدّ لك من البحث عن حسنة واحدة كي تزحزحك عن عذاب النار، هنا تتضح القيمة الفعلية للحسنة، فأنت الآن على استعداد لبذل ما تملك وما لا تملك للحصول عليها، فتسعى في ذلك اليوم الطويل الذي سيكون مقداره خمسين ألف سنة وستدنو فيه الشمس من رؤوس العباد قدر ميل، يطفأ نورها ويضاعف حرها، ويؤتى بجهنم سوداء مظلمة لها شهيق وزفير ولها سبعون ألف زمام يجر كل زمام سبعون ألف ملك وهي تحاول التفلّت منهم لتنقض على أمثالك من المفرّطين، فأنت في ظلام دامس، وخوف قاتل مع مليارات البشر العراة في ذلك الوقت، لا تقل كما يقول الجهلة: (الموت مع الجماعة رحمة) فقد ردّ على ذلك (سبحانه) مسبقًا في قوله: ﴿ولن ينفعكُمُ اليَوْمَ إذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الزخرف: ٣٩)، وفي خضم ذلك البحر الهائل من الناس الذين تشابهت أجسادهم عليك فلم تعد تميز القريب من البعيد، هذا إن أمكنك الرؤية في هذا الظلام الدامس، وفي ذلك الموقف العصيب، تخيل أنك تبحث عن والدك العطوف كي تسأله تلك الحسنة التي بها سوف يرجح ميزان حسناتك فلعلك تنجو من النار، فتبحث عنه .. وتبحث .. وتسأل، وكلٌ في شغل عنك، كل يريد أن ينجو بنفسه وكل يبحث

عما أنت تبحث عنه، تخيل كم ستستغرق من الزمن كي تجده بين هؤلاء البشر في تلك الظلمة، وإذا وجدته .. كم ستكون فرحتك غامرة وكأنك وجدت كنزًا، وتظن أن كربتك قد فرجت، فها قد وجدت والدك العطوف الذي كان يغدق عليك بالأموال إنه لن يبخل عليك الآن بتلك الحسنة .. ولكن ما تلبث أن يدب اليأس إلى قلبك من جديد بعد أن تسمع منه تلك العبارة: (نفسي . . نفسي) فيخطر ببالك أمك الرؤوم التي كم سقتك من حنانها، وكم حرمت نفسها لتعطيك في الدنيا، فتتحول إلى البحث عنها مئات وربما آلاف السنين في ذلك الحر والعرق الذي يسيل منك فتسبح فيه حتى تجدها فتستعطفها علّها تجود عليك بحسنة، حسنة واحدة كنت مستغنيًا عنها في الدنيا، كانت تُعرض عليك فتتركها تذهب أدراج الرياح، وكم ستكون صدمتك أيها المسكين حين تسمع منها القول الذي سمعته من أبيك: (نفسي نفسي .. لا أوثرك اليوم على نفسي) فتتذكر زوجتك الحبيبة، أم أولادك، التي طالما أغدقت عليها من الدلال والملبس والمأكل، فكم تستغرق أيضًا في سبيل البحث عنها، كم من السنين الطوال التي تساوي أضعاف عمرك في الدنيا في سبيل البحث عن تلك الزوجة، ولكنك ما إن تجدها حتى تسمع منها الإجابة نفسها، فتذهب إلى كل من يخطر ببالك تستنجد به، إلى ولدك، فلذة كبدك، إلى ابنتك، إلى أخيك، وأختك، وخالك،

وعمك، وعشيرتك فتسمع الإجابة اليائسة في كل مرة: (نفسي .. نفسي).

أخي الكريم .. لقد مضى عليك أكثر من عمرك في الدنيا، بل أضعافه، خمسون ألف سنة وأنت تبحث عن حسنة، كنت تستطيع أن تحصل على العديد منها في الدنيا في أقل من الجزء من الدقيقة.

إن احتمال عثورك على أبيك أو أمك أو أحد من أقربائك في ذلك الوقت وسط مليارات البشر احتمال ضئيل جدًا، يستغرق آلاف السنين من الخمسين ألف سنة، وذلك في علم الاحتماليات كمن يبحث عن كرة ذات نقطة سوداء بين ملايين الكرات المماثلة بدون النظر إليها، وذلك بالطبع سوف يستغرق من الوقت ما لا يحصى.

أرأيت كيف أصبحت سوق الحسنات الآن غالية؛ تلك التي لم تكن تأبه لقيمتها في الدنيا، لم تكن تساوي عندك سيجارة واحدة من التي ينفثها صاحبها لدقائق ثم ما يلبث أن يسحقها تحت أقدامه، كم كان يستغرق من الوقت في شربها، إن ما استغرقه في شربها ونفث دخانها كنت تستطيع أنت الحصول فيه على آلاف مؤلفة من الحسنات نعم والله آلاف مؤلفة من الحسنات.

ولنفترض جدلاً أنك قد تحصلت على تلك الحسنة عند أحدهم كم كنت على استعداد لأن تدفع في سبيل امتلاكها؟ أليس كنت

ستدفع كل ما تملك من غال ونفيس في سبيلها، نعم، كيف لا؟. فبها بعد رحمة الله تدخل الجنة وتعتق من النار؛ يقول الله تعالى في شأن الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٣٦)، وينطبق عليك هذا القول إن لم يرحمك ربك فلن يقبل منك لو كنت تملك ما في الأرض جميعًا ومثله معه، لأن سوق المال والمادة الآن لا قيمة له ولا وزن .. وبضاعتك اليوم أصبحت كاسدة وحتمًا سوف تبحث لك عن شيء آخر، تقتدي به في سبيل الحسنة الغالية؛ يقول تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤)﴾ (المعارج: ١١ - ١٤).

إذن تلك الحسنة تساوي من في الأرض وما في الأرض جميعًا؛ لو أنهم ملك لك لبذلتهم جميعًا فداءً في سبيل الحصول على تلك الحسنة.

لعلك لا تكاد تصدق أن تلك الحسنة التي كانت حقيرة في عينيك سوف يأتي عليك يوم من الأيام وإذا بقيمتها ترتفع في (بورصة) الأسعار يوم العرض الأكبر حتى تساوي الدنيا وما فيها.

أيها الغافل، يا من كنت تعد نفسك من الأذكياء، أما اتضحت

لك (الجدوى الاقتصادية) للحسنة بعد هذه الدراسة المسهبة والأكيدة التي لا احتمال فيها ولا مخاطرة؟ لقد كنت تخاطر بأموالك في تجارة غير مؤكدة الربح، فهذه مضمونة الأرباح سليمة من الخسارة.

أيها الغافل .. سارع قبل أن يغلق باب العرض والطلب فلا يعد لما تملك قيمة إلا الحسنات، سارع باقتنائها فإن التجارة رابحة والسوق يومئذ رائجة وأبوابها اليوم لا حصر لها، ولا يستطيع أحد احتكارها، أقدم .. أقدم ولا تخف. يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله: «أعرف كثيرًا من الناس لا يعوزهم الرأي الصائب؛ فلهم من الفطنة ما يكشف خوافي الأمور، بيد أنهم لا يستفيدون شيئًا من هذه الفطنة لأنهم محرومون من قوة الإقدام فيبقون في مكانهم محسورين بين مشاعر الحيرة والارتباك»[١].

وما ذلك الإحجام والخوف من الإقدام إلا لمحبة الهوى التي تمكنت من قلوبنا فأصبحنا نخطئ ونظن أننا نحسن صنعًا، ونحيد عن الطريق ونَحسب أننا على الجادة.

يجب أن نفصل بين ما نحب أن يكون وبين ما يجب أن يكون، حتى يتضح لنا الطريق ويسهل علينا اتباع الحقيقة التي لا زيف

(١) محمد الغزالي، جدد حياتك، ص ٤٥

فيها، لأننا إذا نظرنا إلى الحقيقة بمنظور الهوى فإننا لن نرى سوى الهوى نفسه ظانين أنه الحقيقة.

أخي الكريم .. إنك لكي تصبح ملياردير‌ًا في الدنيا لابد لك من البحث عن مجال من مجالات الاستثمار يوفر لك عائدًا يتراوح بين ١٠ إلى ١٠٠ إلى ٢٠٠ ضعف من رأس مالك، وهذا قد أصبح مستحيلاً الآن، لقد سبقك إليه مليونيرات الطفرة الذين كان لهم السبق وكانوا الأوائل القليلين وحققوا أعلى عائد من الربح وسبقوا غيرهم في ذلك.

إن الفرصة أمامك لاستثمار أوسع، وأوفر ربحًا مما فكر فيه هؤلاء، وأكثر الناس في غفلة عنه، فلتكن من القلة القليلة الذين حازوا قصب السبق في ذلك المجال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾(الواقعة: ١٣ – ١٤)، قليل هم الذين سيهديهم تفكيرهم وإيمانهم بالله إلى هذا المجال، إنك سوف تحصل فيه على عائد يتراوح بين العشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة للحسنة الواحدة فلماذا لا تجرب .. أتخاف أن تذهب الدنيا من بين يديك؟ كلا، إنك لن تخسر الدنيا التي تحبّها بل ستربح الاثنين معًا الدنيا والآخرة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً تصدّق بناقة مخطومة في

سبيل الله فقال رسول الله ﷺ: «ليأتينّ يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة»(١).

الأرباح الخيالية ..

إن الاستثمار بالأموال في الدنيا وجني الأرباح لا يأتي بسهولة، فهو يحتاج إلى بذل الكثير من الوقت والجهد، أما التجارة في الحسنة فعلى العكس من ذلك؛ فإن من مجالات التجارة فيها ما لا يحتاج منك أن تقوم من مقامك.

إنك على سبيل المثال تستطيع أن تقرأ الآية من القرآن فتأخذ على كل حرف منها عشر حسنات، فلو قرأت سورة الفاتحة التي لا تستغرق قراءتها ثلاثين ثانية أو أقل، تحصل على ما يقارب ١٤٣٠ حسنة والله يضاعف لمن يشاء، وقد أكد ذلك المصطفى ﷺ فقال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنه؛ والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٢).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه ما من مؤمن يدعو فيقول: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء

(١) رواه النسائي، (٦ / ٤٩)، ج/ ٣١٨٧ ، وقال الألباني صحيح.
(٢) رواه الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه وقال حديث حسن صحيح، ورقمه ٢٩٨٨. وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢٩١٠ .

منهم والأموات إلا كان له بكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة حيًا كان أو ميتًا حسنة.

فعن عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»(١).

وهناك مواسم وأماكن تضاعف فيها الحسنات إلى أضعاف كثيرة، وبجهود يسيرة، فتمتلك بها القصور والبساتين، والحور العين، والخدم إلى ما لا نهاية من متاع لا ينقطع ولا يفنى.

فمن أغنياء الدنيا من يدخر الملايين بعد شق الأنفس ثم يشترى بها قصرًا هنا وبستانًا هناك، ويمكث بين التنقل في أملاكه عمره القصير الذي قدر له في هذه الدنيا وما يلبث أن يتركه ذاهبًا إلى ربه.

وأنت يا طالب الآخرة تستطيع أن تشتري صفقة كبيرة من عدة قصور مفروشة مأهولة بحورها وبساتينها وأنت على سريرك! (فدور الجنة تبنى بالذكر والعمل الصالح فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء ... فيقال لهم (ابنوا) فيقولون: حتى تأتينا نفقة)(٢).

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ٢١٠ بإسناد جيد، كما في صحيح الجامع للألباني ٢ / ٦٠٢٦ .
(٢) ابن القيم. الوابل الصيّب. ص ١٠٩ .

■ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة[١].

■ من قال (سبحانه الله العظيم وبحمده)، غرست له نخلة في الجنة[٢].

فكيف بك أخي الكريم إذا قمت من سريرك وتوضأت وصليت أو تصدقت أو صمت وما إلى ذلك من أعمال صالحة؟ إنك بلا شك ستكون من الفائزين كما وعد بذلك ربنا جل وعلا.

الحرص على الحسنة ..

إن من الفطنة والكياسة أن يجتهد الإنسان في عبادة ربه على وعي، فيحرص على رضا ربه عز وجل ونيل الحسنة حرصه على ماله وأكثر.

فيكون حريصًا على اقتناء الحسنة وحرصه على مضاعفتها أشد، فقد رغبنا الله ورسوله في الازدياد من العبادات تطوعًا ببيان أجور بعض الأعمال، وذلك بعرضها بأنواع عدّة، وبسطها على أوجه مختلفة للتشويق والترغيب ولزرع قيمة للحسنة في النفوس

---

(١) رواه أحمد في مسنده، (٣ / ٤٣٧). وقال الالباني: بلغ رتبة الحسن على أقل الدرجات. انظر الصحيحة رقم ٥٨٩.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب ورقمه في السنن ٣٦٠٢، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢٤٦٥ .

ولبيان قيمة العمل وفضله عند الله، فمن ذلك:

١- بيان عدد الحسنات كما قال ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة» فسأله سائل من جلساته: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «يسبّح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة»(١). وقال ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن: ألف حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميم حرف»(٢).

٢- البشارة بالجنة، ورفع الدرجة، أو ما يتحصل عليه فيها؛ فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»(٣). وقال: «ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا غير فريضة إلا بنى الله له بيتًا في الجنة، أو إلا بُنى له بيت في الجنة»(٤) كما قال ﷺ: «من صلى البردين(٥) دخل الجنة»(٦).

٣- بالمماثلة في الأجر؛ كقوله ﷺ: «من فطر صائمًا، كان له

---

(١) رواه مسلم، في صحيحه برقم ٦٨٠٢ .
(٢) سبق تخريجه، ص ١٠٤ .
(٣) سبق تخريجه، ص ١٠٦ .
(٤) رواه مسلم، في صحيحه برقم ١٦٤٦ .
(٥) البردان: الفجر والعصر.
(٦) متفق عليه، ورقمه في البخاري ٥٦٧ .

مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا»(١). وقوله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»(٢).

٤- بيان فضل العمل مقارنة بغيره؛ وذلك كقوله ﷺ في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ «إنها تعدل ثلث القرآن»(٣).

٥- يمحو الذنوب والخطايا: كقوله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»(٤).

٦- بإخفاء الأجر وذلك لبيان عظمته لقوله ﷺ في الصوم: «كل عمل ابن آدم يضاعف؛ الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة

---

(١) رواه الترمذي في السنن وقال حديث حسن صحيح، ورقمه ٨٠١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٨٠٧ .
(٢) متفق عليه، ورقمه في البخاري ٨٧٠ .
(٣) رواه مسلم، انظر الحديث في صحيح مسلم ورقمه ١٨٣٦، ج ٦ / ٧٧ .
(٤) رواه مسلم، في صحيحه، ج ٣ / ١٠٨ ورقمه ٥٣١ .

ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[١] فبين هنا أن الصوم أفضل من المضاعفة إلى سبعمائة ضعف.

٧- بضرب المثل؛ قال ﷺ: «أرأيت لو كان بفناء أحدكم نهر يجري، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، ما كان يبقى من درنه؟ قالوا: لا شيء، قال: إن الصلوات تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدّرن»[٢].

٨- تثمين وتقويم الحسنة بقيمة مادية محسوسة في الدنيا وذلك للتقريب والمفاضلة بين البدائل المختلفة؛ وذلك كما قال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم، فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[٣].

٩- بيان الخيرية أو السبق للعامل؛ كقوله ﷺ: «خيركم من

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم، في صحيحه، ج ٨ / ٢٦ ورقمه ٢٦٦٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ورقمه ٥٢٠، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٦١٤.
(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، ج ١ / ٥٥٢، ورقمه ٨٠٣.

تعلم القرآن وعلمه»(١) أو قوله: «سبق المفرّدون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»(٢).

١٠- باستحقاقه لشفاعة الرسول أو القرآن أو غيره؛ كقوله ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»(٣).

١١- بصلاة الملائكة واستغفارهم له؛ كقوله ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»(٤).

١٢- ببيان موقع العمل من الله عز وجل ورضاه عنه كقوله ﷺ: «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يُحسن»(٥).

وقوله ﷺ: «يعجب ربكم من راعي الغنم في شظيّة يأذن بالصلاة ويقيم»(٦).

فمن العبادات ما بيَّن أجرها الشارع ووضحه ترغيبًا، ومنها ما أخفاه وخبأه لحكمة وكرامة للمؤمن ليفاجئه بالأجر الجزيل في

---

(١) صحيح البخاري، ج ١٧ / ٥ ورقمه ٤٩٠٧.
(٢) صحيح مسلم، ورقمه ٦٧٥٩.
(٣) صحيح مسلم، ج ٦ / ٧٤ ورقمه ١٨٢٤.
(٤) رواه البخاري، رقم الحديث ٤٤٠.
(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن كليب وحسّنه الألباني برقم ١٨٩١.
(٦) رواه أحمد في مسنده برقم ١٦٩٨٥، وذكر نحوه الألباني في صحيح الجامع وفيه زيادة وهو فيه برقم ٨١٠٢.

الآخرة، فليكن للمسلم في كل نوع من العبادات نصيب، فلا يقتصر على نوع من العبادة دون غيره، حتى يُدعى من أبواب الجنة الثمانية، وعليه أن يسعى جاهدًا أن يضاعف من حسانته، فقد يُضاعف العمل وإن كان بسيطًا في زمن معين ومكان معين.

ففي الحرمين الشريفين مثلاً تضاعف الحسنات فالحسنة بمكة بمئة ألف حسنة، وألف حسنة في مسجد رسول الله ﷺ. كما ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم وقد ورد في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا بَنيّ اخرجوا من مكة حاجين مشاة حتى تراجعوا إلى مكة مشاة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وإن الحاج الماشي له بكل خطوة يخطوها سبع مئة حسنة من حسنات الحرم، قيل يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال الحسنة بمائة ألف حسنة»[١].

فهل علمت يا أخي المسلم أن أجر الصلاة الواحدة في حرم مكة المكرمة يساوي أجر خمس ملايين صلاة؟ فحينما فرض الله

---

(١) مجمع الزوائد ورقمه ٧٨٢٥، ورواه البيهقي في السنن الكبرى والحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ورواه ابن خزيمة في صحيحه وقال: إن صح الخبر فإن في القلب من عيسى بن سواده، كما رواه البزار والطبراني. وقيل عيسى بن سواده مجهول وباقي رجاله ثقات.

خمسين صلاة على أمة محمد ﷺ ثم خففها إلى خمس صلوات جعل كل صلاة بعشر صلوات في الأجر فيحصل المؤمن برحمة الله في اليوم الواحد على أجر خمسين صلاة وذلك كما جاء في الحديث الصحيح«قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمسٌ عليك» (١) فإذا ضربت الخمسون صلاة في مئة ألف كان ناتج الضرب خمسَ ملايين صلاة، وإن كان هذا أجر الصلاة في ذلك المكان المبارك فإن أجر الحسنة الواحدة كقراءة الحرف الواحد من القرآن يساوي: (١ × ١٠ «أمثالها» × ١٠٠,٠٠٠ = ١٠٠٠٠٠٠ مليون حسنة.

ومن الطرق المثلى لمضاعفة الأجر أن تنظر في الطاعة التي تهم بعملها كقراءة القرآن، مثلاً، فإذا قرأته أخذت على الحرف عشر حسنات فإن قرأته على وضوء ضوعف الأجر وإن قرأته مستقبلاً القبلة زاد الأجر وإن قرأته في صلاة زاد أكثر وأكثر، والله يضاعف لمن يشاء.

ومن أوقات مضاعفة الأجر استغلال أوقات الغفلة؛ وهي التي يكون الناس فيها غافلين فتذكر الله في نفسك مثلاً أو تصلي فيضاعف لك أجر تلك العبادة أكثر مما لو أديتها في وقت انتباه

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله وكلم الله موسى تكليمًا، حديث رقم ٧٠٧٩.

الناس وأدائهم للعبادة وهذه الأوقات مثل: أوقات اجتماع الناس على اللهو، أوقات النوم، وحينما تكون في السوق فانظر إلى الأجر العظيم عند ذكر الله في السوق مثلاً وقس على ذلك فقد قال ﷺ: «من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»(١).

الحرص على الحسنات أن ينتقص منها الشيطان:

ما فتيء الشيطان يفسد على العبد عبادته ويحاول جاهدًا أن يُنقص له في أجرها؛ وذلك بصرف قلبه عنها فلا يخشع فيها، أو يوسوس له في أمور الدنيا فيشغل فكره بها أثناء تأديتها أو يدخل الرياء إلى قلبه وحب المحمدة من الناس.

فتخيل يا أخي المسلم أنك عملت في التجارة مثلاً وكسبت ملايين الأموال ثم أتى سارق فاستولى على معظم ما في خزانتك من أموال، إن من الناس من ينتحر والعياذ بالله، لمثل هذا المصاب لشدته عليه وقهره على ذهاب أمواله التي جمعها وجاهد في سبيل

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث غريب وحسنه الألباني، سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما يقول إذا دخل السوق ورقمه ٣٤٢٨ وفيه رواية أخرى لابن ماجه وحسنهما الألباني.

الحصول عليها، وإن مثل الشيطان كمثل هذا السارق فتخيل أنك تحصل على خمسة ملايين حسنة عند صلاتك في الحرم المكي مثلاً فيوسوس لك الشيطان فيها فيفسدها عليك فلا تحصل على ما يحصل عليه غيرك فيها، فقد تخرج من صلاتك بعدّة آلاف من أصل ملايين الحسنات، بل قد يسرقها كلها إن لم تكن حريصًا عليها ثم لا يكون حزنك إلا يوم العرض الأكبر حينما تكتشف ضياع ثروتك فتبكيها حيث لا ينفع البكاء.

النظرة الشمولية إلى الدنيا:

من الحكمة النظر إلى ما يواجهنا من أمور نظرة شمولية تستوعب الأمر بأكمله، على نطاق واسع، ومن جميع جوانبه، فلا يحدق المرء بنظره إلى زاوية من الزوايا أو نقطة من النقاط المهمة في نظره، فيطلق الحكم عامًا على الكل بالنظر إلى الجزء ولابد أن يكون هذا ديدنه في حل مشاكله.

فكثير من الناس تنقصهم الحكمة والنظرة البعيدة، فنرى أحدهم إذا أراد بناء منزل على سبيل المثال فإنه ينظر فيما يملك من أموال فإن كانت كافية لتكاليف شراء الأرض ثم تكاليف البناء والتأثيث شرع في البناء، وسعى لامتلاك ذلك المنزل، فمثل هذا لا يكون دارسًا للأمر من جميع جوانبه، فلا تزال هناك تكاليف يجب

النظر إليها وهي تكاليف صيانة هذا البناء وتشغيله، فالبناء إن كان كبيرًا يستوجب مبالغ باهظة لصيانته (صيانة كهرباء - تكييف مركزي إن وجد - ماء - سباكة - حمام سباحة وما إلى ذلك) ثم هل تستطيع ربة المنزل إدارة هذا البناء كله بمفردها، فلا بد له من تكاليف أخرى لتشغيله وذلك بجلب الخدم للعناية به وتنظيفه، فعليه أن ينظر إلى مصدر رزقه إن كان قادرًا على اقتطاع مبالغ سنوية منه للصيانة والتشغيل وإلا عدل عن ذلك متبعًا المثل الشعبي القائل (مدّ لحافك على قد رجليك) فإن كثيرًا من الناس ينظر في إمكان امتلاكه هذا المسكن فحسب، ولا ينظر إلى ما وراء ذلك، فإن استطاع أن يمتلكه، دفع فيه كل ما يملك، بل ربما استدان من الآخرين لامتلاكه، ثم تجده بعد ذلك يعاني من ض يق ذات اليد، فيقتر على نفسه وعلى من يعول، ومنهم من يضطر إلى بيعه بأبخس الأثمان، فهل من الحكمة فعل ذلك؟

مثال آخر ... انظر إلى مرتكب الفاحشة أو شارب الخمر تجد نظرته في دراسة الأمر تتوقف عند نقطة اللذّة، وتعمى عينه عما وراء ذلك أو يتغافل عنه فلا يتنبه للأمر إلا بعد فوات الأوان.

إن من الخطأ بل من الحمق النظر إلى جانب من الأمر وترك سائر جوانبه، كما أنه من الخطأ والحمق النظر إلى الفوائد

والتكاليف اللحظية والتغافل أو نسيان الفوائد والتكاليف المستقبلية، فلكي نتخذ القرار السليم بشأن الأمر أو المشكلة المراد دراستها، لا بد من النظر إليها من جميع جوانبها وزواياها ثم النظر إليها مرة أخرى عن قرب وعن بعد، نظرة عامة منصفة شاملة، والنظر إلى ما نجنيه منها من فوائد لحظية (وقتية) ومستقبلية، وفوائد مباشرة وغير مباشرة، محسوسة ومعنوية، ثم مقارنة الفوائد والتكاليف الحقيقية خلال العمر الافتراضي للشيء ككل، ثم النظر إلى ما نملك من موارد من مال ووقت وجهد، ثم المقارنة بين البدائل الأخرى، ثم اتخاذ القرار بناءً على ذلك كله.

فالنظرة اللحظية تؤدي إلى دراسة المنافع والتكاليف التي تحصل في بداية الشيء ولمدة قصيرة من الزمن.

أما النظرة المستقبلية فتؤدي إلى دراسة المنافع والتكاليف التي تحصل على مدار العمر الافتراضي كله لذلك الشيء.

وهذه - أخي الكريم - هي الطريقة المثلى لإيجاد الحلول السليمة في جميع المشاكل صغيرها وكبيرها، كما أنها تنطبق على حل المشكلة الكبرى أو المسألة الكبرى التي نحن بصددها والحديث عنها، ألا وهي مشكلة الحياة (إن صح التعبير).

فانظر الشكل:

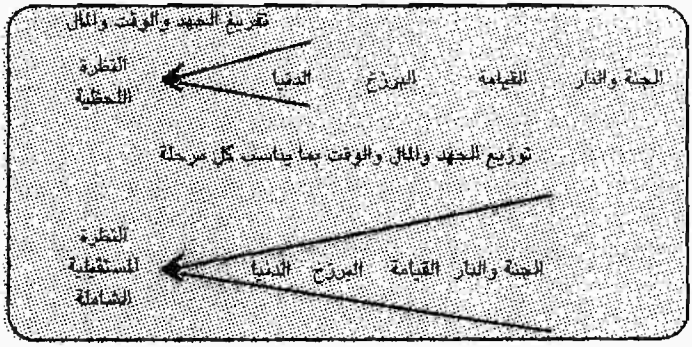

بالنظر إلى المشكلة، وإلى ما لدينا من موارد لحلها، نظرة شمولية عامة، نجد أن تصرف البعض منّا تجاه معيشته في الحياة الدنيا والحياة الأبديّة كلها على المدى البعيد، تصرّف لا يصدّق، فهو لا يصدر إلا عمن نتهمه بالجنون أو بالخلل العقلي، فماذا نقول لمن أراد أن يسافر من مكة إلى المدينة فجمع أمتعته وركب سيارته واتجه نحو المدينة ينوي المعيشة بها، وقبل أن يصل، توقف في قرية قريبة فجمع أمواله واشترى ما يلزم من مواد البناء من طوب وحديد وشرع في البناء ثم الزخرفة وتأثيث المنزل، وإذا سُئل أين وجهتك الأساسية يقول: إلى المدينة ولكني أنوي المقيل هنا، إن هذا بالطبع سيتهمه الجميع بالسفه والجنون.

أخي الكريم .. لا تعجب من هذا فكثير من الناس في عصرنا

هذا بعقلائهم ومفكريهم وسادتهم وأولي الرأي والمشورة يفعلون فعله، إلا من رحم الله.

فقد توجّهوا بثقلهم وما يملكون من مال وجهد ووقت إلى حقبة من الزمن وبقعة في طريق الحياة الطويل سوف يمكثون فيها مدّة قصيرة من الزمن وتركوا ما سوف يعيشون فيه أبد الآبدين.

بل إن هذا الرجل ربما يكون أفضل حالاً من هؤلاء لأن نسبة الساعات التي سيمكثها في القرية تُقاس إلى نسبة ساعات عمره التي سيقضيها في المدينة ولو بنسبة ضئيلة جدًا فنستطيع إيجادها بعملية حسابية، أما أولئك الذين اقتصروا على الحياة الدنيا أو جعلوا معظم تركيزهم عليها فنسبة مكوثهم بها لا يقاس ولا يقارن إلى نسبة العمر اللانهائي، وهو حياتهم الأبدية بعد ذلك فلا نستطيع إيجاده بعملية حسابية لأنه لا سبيل إلى مقارنته.

وقد كانت نظرة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام إلى الدنيا كأنها بقعة ظل في طريق مسافر يستظل فيها، وما ذلك إلا لأنهم عرفوا حقيقة الدنيا وحياتهم فيها بالنسبة إلى حياتهم الأبدية اللانهائية فنظروا إليها تلك النظرة الشاملة.

فقال ﷺ: «ما لي وما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب

استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١]، إنني بهذا لا أدعو إلى التقشف وترك ملذات الدنيا التي أباحها الله، ولكنني أدعو إلى النظر إليها نظرة كلية فاحصة والعمل على إثر ذلك بما يتناسب وتلك النظرة.

كيف تصبح حكيماً في اتخاذ قراراتك؟

هناك ست خطوات مهمة عند اتخاذ أي قرار.

١- تعريف المشكلة:

وذلك بجمع المعلومات عنها وتعريفها وتحديد أبعادها وجوانبها من ناحية الزمان والمكان.

٢- وضع الأهداف:

قد يكون الهدف بيئيًا مثلاً أو اجتماعيًا أو أمنيًا أو لزيادة الكفاءة وقد يكون الهدف هدفًا ترفيهيًا أو هدفًا اقتصاديًا بحتًا.

ولا بد عند وضع الأهداف من التركيز على هدف واحد رئيس، وجعل بقية الأهداف - إن وجدت - وسائل فيسعى إلى تحقيق ذلك الهدف الأهم، أولاً لأن تعدد الأهداف لا يُحقق الحل الأمثل للمشكلة.

---

(١) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح، ٧ / ٤٢، ج ٢٤١٧. وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢٣٧٧ .

٣- تعريف وحدة القياس:

فإن كان الهدف هدفًا اقتصاديًا فوحدة قياسه هي العملة، كالريال أو الدولار مثلاً.

وإذا كان الهدف بيئيًا كانت وحدة قياسه هي درجة التلوث مثلاً.

وإذا كان الهدف أُخرويًا فإن وحدة القياس هي الحسنة بعد رضوان الله سبحانه.

٤- تعريف البدائل المختلفة:

عند اتخاذ قرار ما لا بد من النظر إلى البدائل الممكنة؛ فإذا أردت السفر إلى بلد معين فإن لديك في هذه الحالة العديد من البدائل، فأنت إما أن تسافر بالطائرة أو السيارة أو القطار أو الباخرة.

وفي حالة تطبيق ذلك على الدار الآخرة فإن البدائل هنا هي اختيار المسار المناسب الذي تريد أن تسلكه للوصول إلى نهاية المطاف (مسار الظالم لنفسه، المقتصد، أو السابق بالخيرات). انظر الشكل ص ٣٥ .

تقييم كل بديل على حدة ومقارنة البدائل ثم اختيار البديل الأفضل الذي يكون هو الخيار الأمثل بالنسبة لتحقيقه للهدف الموضوع سابقًا. وذلك بأن يُراعى فيه أن يكون الأقل تكلفة والأكثر

فائدة لحظية ومستقبلية مباشرة وغير مباشرة محسوسة وغير محسوسة كما تحدثنا عن ذلك سابقًا.

مثال:

قد يكون هدف أحدهم شراء بضاعة معينة، لهذا فإنه قد يختار على الفور البضاعة الأرخص ثمنًا، ولكن قد لا يكون هذا الاختيار هو الأمثل، فربما كانت هذه البضاعة هي الأرخص ثمنًا لحظيًا وهي في الحقيقة الأكثر ثمنًا مستقبليًا. فتكون سريعة العطب فيضطر إلى التخلص منها وشراء أخرى سواها فضلاً عن ذهابه وإيابه في كل مرة لإصلاحها وبذل ماله ووقته وجهده فيما لو أنه اشترى النوع الجيد منذ البداية ولو كان أكثر ثمنًا لحظيًا إلا أنه سيكون الأقل تكلفة مستقبلاً.

فتكون بذلك تكلفة ومنافع الأولى والثانية كالتالي:

البضاعة الرخيصة		البضاعة الغالية الثمن	
المنفعة	التكلفة	المنفعة	التكلفة
١- رخيصة الثمن عند الشراء ٢- جيدة الاداء في البداية	١- قصيرة العمر الافتراضي ٢- كثيرة العطب ٣- كثرة التردد إلى الصيانة لإصلاحها ٤- الجهد والتعب والمال المبذول ٥- الغضب والتأثير النفسي ٦- اللجوء إلى شراء غيرها في النهاية	طويلة العمر جيدة الأداء قليلة الصيانة توفير الجهد والمال الراحة النفسية	غالية الثمن عند الشراء

بالمقارنة بين البضاعتين على المدى البعيد من حيث المنافع والتكاليف نجد أن البضاعة الغالية الثمن أفضل من غيرها[١].

تفاهة الهدف وعظم التكلفة:

سئل أحد المدخنين عن سبب اختياره لقرار التدخين فضحك وأجاب: للتسلية!

دعونا نفنّد الآن هذه المشكلة:

المشكلة هي التدخين أو عدم التدخين

الهدف ترفيهي وهو التسلية

وحدة القياس هي الترفيه.

البدائل: هي اختيار أي الأشياء التي تدخل السرور والترفيه حقيقة على النفس على المدى القريب والبعيد عن طريق النظرة الشاملة، والبدائل هنا اختيار التدخين أم عدمه.

تقويم كل بديل على حدة ثم اختيار الأمثل فيهما:

---

(١) هذا مجرد مثال ولكن هذا لايعني أن البضاعة الغالية الثمن دائمًا هي الأفضل.

التدخين		عدم التدخين	
التكلفة	الفوائد	التكلفة	الفوائد
١- المعاناة بعد السرور المؤقت ٢- تكلفة مالية تقريبًا ٥ ريال يوميًا × ٣٦٥ يوم × ٤٠ [1] سنة = ٧٣٠٠٠ ريال تقريبًا ٣- مراجعة المستشفيات ٤- تكاليف أخرى للعلاج ٥- احتمالية الإصابة بأمراض القلب والرئتين ٦- تعريض الحياة للموت ٧- التعرض للعقاب في الآخرة	الترفيه والسرور لفترة زمنية محدودة	لا يوجد	حفظ الصحة حفظ المال واستخدامه في ترفيه أفضل السلامة من العقاب الاخروي

هل يستحق هدف حقير كهذا كل هذه التكلفة!!..

٦- أما الخطوة السادسة في اتخاذ القرار فهي:

التقويم المستمر بعد ذلك وامداد عملية التقويم بما يستجد على المشكلة من أمور تفرض تغيير الحل إلى بديل آخر.

أخي الكريم .. في بداية اتخاذك للقرار وفق هذه الخطوات الست، سوف تشعر أنك تتكلف الأمر وتصطنع الحكمة، ولكن بعد الممارسة وكثرة المران ستجد أن ذلك أصبح ديدنك في جميع قراراتك.

فاتخاذ القرار السليم في بداية الأمر لن يكون سهلاً، فكثرة التعود ستكسب المرء الحكمة تلقائيًا، فيجد نفسه يتصرف وفق هذه الخطوات الست عفويًا في جميع قراراته، صغيرها وكبيرها.

وليس كل من اتبع هذه الخطوات الست يكون حكيمًا في قراراته.

فلا بد من التوضيح أن بعض العقول البشرية قد يحصل بها بعض الخلل والقصور في تعريف أحد هذه البنود الستة وذلك لحكمة يعلمها الله.

فقد لا يضع حسابًا لعنصر الوقت مثلاً عند تعريف المشكلة.

وربما يتّبع جميع الخطوات بطريقة سليمة ولكن الهدف يكون تافهًا كمثال التدخين إذ جعل الهدف هو التسلية وعامل التسلية في

الحقيقة لا يكون هدفًا في حد ذاته، فهو وسيلة لتحقيق هدف آخر وهو استعادة النشاط للعمل بأداء أفضل.

فلكي نضمن القرار الأمثل يجب ألا ننتقل من خطوة إلى التي تليها إلا بعد دراستها واستيفائها ووضع أهداف حقيقية تناسب التكلفة وذلك بمحاولة النظر إلى المشكلة نظرة مستقبلية شاملة.

خاتمة

إن القرارات العشوائية . .

والأهداف التي يمليها علينا الهوى . .

والحلول التي تنبع من نفس أمّارة بالسوء . .

يؤيدها الشيطان بالتصفيق والمؤازرة . .

ما هي إلا تعريضٌ لحياتنا وحياة آخرين معنا للخطر.

أخي الكريم . .

لا تجعل لهؤلاء سبيلاً إلى صنع قراراتك، فهم ليسوا أهلاً لذلك. وليكن صنعك للقرار نابعًا من ما حباك الله به من عقل راجح، ودين راسخ وضمير حيّ:

قال الشاعر:

إني بُليت بأربعٍ مـا سُلِّطوا ... إلا لشدّة شقوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف السبيل وكلهم أعدائي

فالسبيل إذن هو تحكيم دينك وعقلك وضميرك في جميع أمورك وفقك الله.